دار الثقافة

اختيارات مصيرية وصعبة

بقلم
مايكل جرين

اهداءات ٢٠٠١
دار الثقافة
الهيئة الإنجيلية والقبطية

اختيارات

مصيرية وصعبة

بقلم

مايكل جرين

ترجمة

ادوارد وديع عبد المسيح



" Critical Choices "

By Michael Green

Published by arrangement with Inter- Varsity press,

Leicester, United Kingdom

طبعة أولى

اختيارات مصيرية وصعبة

صدر عن دار الثقافة - ص.ب ١٢٩٨ - القاهرة

١٠/ ٨٣٢ ط ر/ ١-١/ ٢٠٠٠

رقم الإيداع بدار الكتاب: ٣٨٤٠/ ٢٠٠٠

I.S.B.N. 977 - 213 - 529 - 9

جمع وطبع بمطبعة سيوبرس

تصميم الغلاف: **إخلاص مطر**

مقدمة الدار

يعيش الإنسان فى عالم يحتوى على كثير من الإغراءات الفكرية ، والسياسية ، وحب السلطة والتسلط ، والمطامع الشخصية فى الحصول على الملذات المختلفة مثل الجنس والمال والمأكل والمشرب والملبس ، وفى كل هذه يقف الإنسان حائراً ماذا يختار ، وهل ما يختاره صحيحاً أم خاطئاً ؟

ويضع هذا الكتاب حداً لهذه الحيرة حيث يتكلم عن كل الاختيارات ببراهين مختلفة وينتهى بالاختيار الأمثل ... فما هو هذا الاختيار ... ؟

يسر دار الثقافة أن تقدم هذا الكتاب لقراء العربية ، حيث يشرح كاتبه مايكل جرين القضية فى أبعادها المختلفة ، ويصل إلى نتيجة منطقية إذا أراد الإنسان أن يعيش حياته بلا حيرة أو توتر فى اختيار أولوياته .

دار الثقافة

المحتويات

صفحة

كلمة إلى القارئ

جميعنا يحيا حياة مليئة بالمشغوليات ، فنحن محاطون باختيارات لا حصر لها ، وليس لدينا أى متسع من الوقت لفحص هذه الاختيارات بدقة . ونتيجة لذلك ، فنحن نميل أن نشق طريقنا فى الحياة ونحن موجِّهين اهتمامنا للضغوط الملقاة علينا الآن ، قانعين بأن نلقى القضايا المصيرية جانباً حتى يمكن أن نتعامل معها فى وقت لاحق مناسب . إن هذا الكتاب يتعامل مع هذه القضايا الصعبة .

هناك قصة شهيرة ذكرها جورج بورجس (Jorge Borges) فى كتابه « مكتبة بابل » - ، فهو يرى العالم كمكتبة ضخمة . فإنك تشعر بالإثارة أولاً عندما تمسك بالمفاتيح التى تسمح لك بدخول المكتبة . وتشعر بالإثارة عندما تتحرك فى الطرقات المليئة بالكتب . فليست هناك مشكلة فى العالم ليس لها حل فى مكان ما فوق هذه الرفوف . ولكن لا يمضى وقت طويل حتى تكف عن المحاولة فى يأس . فهناك أشياء كثيرة جداً تحتاج إلى المعرفة ، واختيارات عديدة عليك أن تتخذ قراراً بشأنها ، والحياة ليست طويلة بما فيها الكفاية ، وأنت تشعر أن ما تعرفه قليل جداً مقابل ما يجب أن تعرفه . لقد أتيت لكى تبحث عن الحقيقة ، وانتهيت وأنت تشعر بالارتباك والإحباط ، وكالشخص الذى ذكرناه فى القصة ، فأنت تأمل فى أن تجد كتاباً فوق أحد رفوف المكتبة أهم من جميع الكتب بما يحويه من معان ، ولابد من وجود إنسان « شبيه بالله » كما يقول بورجس ، يستطيع أن يفسر ما جاء فى هذا الكتاب ولكن الرجل الذى فى القصة يموت يأساً ، لأنه لا يجد ذلك الكتاب أبداً أو يقابل الشخص الذى يستطيع أن يفسر كل ما فى الكتاب .

هذا ما يحدث عندما نغلق الباب أمام الله ولا نعطى له مكاناً فى حياتنا . يوجد كتاب يعطى معنى لكل مكتبة الحياة ، وهو أكثر الكتب مبيعاً فى العالم .ويوجد إنسان « شبيه بالله» يستطيع أن يفسر كل ما فى الكتاب ، ونحن نؤرخ به العصر الذى نعيش فيه . إنه لا يتوارى عنا فى مكان خفى من المكتبة . لقد جاء ليلتقى بنا . وهذا ما حدث عند ميلاده ، ولكننا أدرنا له ظهورنا ، أليس كذلك ؟ نحن نبتعد عن طريقه لأنه يكشف كل ما فى أعماقنا . وهذا شئ يزعجنا . إننا نريد أن نستغنى عنه . وهذا ما حدث فى يوم الجمعة العظيمة ، ولكننا لا نستطيع التخلص منه . فهو يعود للحياة من جديد . وهذا ما حدث فى أول أحد للقيامة . فى الحقيقة ، إنه يشتاق أن يدخل إلى داخل حياتنا ليطهرها ويصبح القوة المؤثرة فى شخصياتنا ومجتمعنا . وهذا ما حدث فى يوم الخمسين ، وما يحدث على الدوام منذ ذلك الحين . فكر فى ك . س لويس الذى أصبح مسيحياً بعد أن كان من العقلانيين المتشككين فى الإيمان وأصبح واحداً من أشهر المسيحيين الأمناء ذوى التأثير الفعال الذين شهدهم هذا القرن . ولنلق نظرة على الكسندر سولتسين (Alexander Salzhenitsyn) الذى سلك نفس الطريق فى معسكر سوفيتى للعمل ، ورفع راية الحق والإيمان والقيم الإنسانية فى أحلك لحظات الاضطهاد الماركسى . ولنتأمل فى جون بولكنج هورن (Gohn Polking horne) الذى تخلى عن كرسى الأستاذية فى الطبيعة الرياضية فى جامعة كمبردج ليصبح من رجال الدين . لقد أصبح أسيراً لذلك « الإنسان الشبيه بالله » والذى جعل للحياة البشرية والكون الذى نسكنه معنى وهدفاً . كل هؤلاء واجهوا الاختيارات الصعبة حقاً ، ثم عاشوا وفقاً للقرار الذى اتخذوه . لقد كانوا واثقين تماماً أنهم اتخذوا القرار الصحيح .

وفى خضم هذا الكم الهائل من الاختيارات المحيرة من أنشطتنا ونظام حياتنا ، يوجد كتاب يقدم معنى لكل شئ ، ويوجد إنسان يمكن أن يكون هادياً ومرشداً لنا . وقد وجدت أن ذلك حقيقى ومرضى تماماً ، ولهذا السبب فإنى أكتب هذا الكتاب عن الاختيارات الصعبة ، ولكننى أريد من القراء أن يتخذوا قرارهم . ولكننا لا يمكن أن نفعل ذلك بناء على ما يقوله شخص آخر .

ولذلك فلن تجد فى هذه الصفحات محاضرة دسمة عن الإيمان المسيحى . فالكتاب يتعامل مع قضايا عملية علينا جميعاً أن نواجهها : هويتنا ، ومأزقنا البشرى وأوهامنا الزائفة . إنه يكشف الاحتمال بأن كتب الخيال العلمى بما فيها من اهتمام بالغزاة القادمين من الفضاء قد كشفت فجأة عن مفتاح فى غاية الأهمية . إنه يلقى نظرة على اشتياقنا للحرية ، والضغوط النفسية والتوتر الذى نعانى منه ، وجوعنا للحب والعلاقات ، ويتساءل إذا كانت هذه المجالات الخاصة بنواحى الاختبار البشرى تقودنا إلى الكتاب و « الإنسان الشبيه بالله » الذى يمكنه أن يقدم معنى لكل شئ . إذا كان الأمر كذلك ، فأهم السمات البشرية يجب أن تؤدى دورها . علينا أن نختار . ومن بين جميع الاختيارات ، التى سنقوم بها ، فهذا الاختيار يمكن أن يكون أصعب الاختيارات .

هل نتبع ذلك الإنسان الشبيه بالله أم لا ؟

مايكل جرين

عيد العنصرة ١٩٩٥

الفصل الأول

بصمات تدل على وجود الله

القضية الأساسية

افتتح عالم الفلك الشهير كارل ساجان (Carl Sagan) حلقاته التليفزيونية الشهيرة «الكون» بهذه المقولة الجامدة : «الكون هو كل ما هو موجود أو ما كان منذ الأزل أو ما سيكون إلى الأبد» ، ولكن هل كان على صواب ؟ .

إن ساجان نفسه لم يكن متأكداً مما قال كما كان يبدو . ففي كتاباته فيما بعد وجد نفسه يقتنع بأنه لابد من وجود قوة إلهية غامضة فيما وراء الكون نفسه . من منا لم يصعق دهشة بسبب بهاء المجرة (الطريق اللبنى) فى ليلة من ليالى الشتاء الباردة ، ويتعجب لجمالها وضخامتها ؟ . قال إبراهيم لنكولن : « إنى أستطيع أن أفهم كيف يمكن لإنسان أن ينظر إلى الأرض ويبقى ملحداً ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم كيف يمكنه أن ينظر إلى أعلى إلى السموات ويقول لا يوجد إله » . المشكلة أن الله ليس متمشياً مع روح العصر ، وهذا وحده يغنى عن أى نقاش . فالإيمان ليس مريحاً بما فيه الكفاية .

هناك مثال توضيحى لهذه النقطة فى الرسالة الأولى من « رسائل سكروتيب » لـ (ك .س لويس). إن سكروتيب(Screwtape) رئيس الأبالسة يكتب إلى « ورم وود » (Wormwood) صديقه من الهواة ، عن عدم جدوى الحقيقة فيقول له : « إن صديقك قد تعوَّد منذ أن كان غلاماً على تبنى العديد من الفلسفات التى لا تتوافق معاً . إنه لا يفكر فى التعاليم من منطلق أنها صائبة أو زائفة ولكن على أساس أنها بالية أو معاصرة ، تقليدية أو صارمة . إن العبارات

المبهمة والغامضة وليس النقاش - أفضل وسيلة يمكن أن تستخدنها لإبعاده عن الكنيسة .. لا تضيع وقتك في محاولة إقناعه بأن المذهب المادى على صواب . دعه يعتقد أنه قوى أو واضح أو يتسم بالشجاعة - أى فلسفة المستقبل . فهذا هو الشئ الذى يهمه » .

ويمضى سكروتيب إلى القول بأنه كان على وشك أن يفقد ملحداً جيداً ظل يعمل على اجتذابه إليه طيلة عشرين سنة ، عندما بدأ بالفعل يفكر ويبحث عن الدليل . فاقترح عليه فكرة قائلاً : « هذا موضوع فى غاية الأهمية لا يمكن التعامل معه فى وقت متأخر من الصباح » . وشغل عقله بالتفكير فى طعام الغذاء . « وما أن نزل إلى الشارع ، حتى كسب سكروتيب المعركة . فهذا صبى ينادي بصوت مرتفع وهو يبيع الجريدة الصباحية ، وهذه حافلة تحمل رقم ٧٣ تمضى بسرعة أمامه . وما أن عبر الطريق حتى أقنعته أن ما يحتاجه بالفعل ليس سوى جرعة صحية من الحياة الحقيقية حتى يطرد كل ما يشغله من أفكار عقيمة عفى عليها الزمن » .

ألا يحدث هذا معنا ؟ إن الله لا يبدو بالنسبة لنا فكرة مسرة هذه الأيام ، ولذا فنحن لا نهتم بأن نعطى أهمية لهذا الموضوع . إننا نبعد عن عقولنا أى تفكير فى الموضوعات ذات الأهمية القصوى تحت طغيان ما هو عاجل وفورى :

فلربما كانت مواجهة هذه القضية فكرة جميلة . فهل نحن أيتام فى أرض بلا مستقبل ؟ وهل نحن مجرد مجموعة من الجينات التى وصلت لطور النمو ؟ أم أن هناك ما هو أكثر من ذلك بالنسبة للعالم ولأنفسنا ؟ يقول الكتاب المقدس فى أول عبارة افتتاحية : « فى البدء خلق الله السموات والأرض » . إن هذه العبارة قد تكون صحيحة . فإن كان الأمر كذلك ، فيترتب عليها نتائج باهرة بالنسبة لجميعنا .

ساجان أم الكتاب المقدس ؟ أيهما أصدق ؟
هل هناك خالق وراء هذا الكون ؟

إن كان الله موجوداً ، فيحق لنا أن نتوقع أن يترك بصماته فوق رمال عالمنا . وأرجو أن

تلاحظ من فضلك أننى بكلمة « الله » لا أقصد الفكرة العصرية الحديثة عن إله هو الكون بكل ما فيه ليس إلا . كلا ، إننى أقصد الله الخالق والعاهل لهذا الكون والهدف من وراء هذا الكون - ولكنه ليس مساوياً له بأى حال من الأحوال . فالله يجمع ما بين السمو (فوق عالمنا ومن ورائه) وبين الوجود بروحه داخل الكون (مظهراً بصماته فى كل شئ فيه) . ما هى البصمات التى نتوقع أن يتركها مثل هذا الإله ؟

دعنا نبدأ بشخص قدَّم قليلاً من الأسانيد المدعمة للعقيدة الدينية عندما كتب كتابه « إشاعة الملائكة » . يُعتبر بيتر برجر (Peter Berger) عالم اجتماع متفتح الذهن وقوى الملاحظة ، فقد لفت الانتباه لعدد من « الأدلة على وجود سلطة عليا » نعترف بها جميعاً ، ولكن يصعب تفسيرها إذا لم يكن هناك إله .

أولها النظام « إن جميع المجتمعات تميل ميلاً غريزياً للنظام ، وهو يرتبط بالنظام الذى نراه فى العالم من حولنا » . فالنظام البشرى يتفق بطريقة ما مع النظام الذى يفوقه ... النظام الذى يمكن للإنسان أن يسلّم نفسه ومصيره له « هكذا يكتب برجر : « وهكذا فميل الإنسان للتنظيم يعنى نظاماً فائقاً » ، فإذا كان هناك نظام فى العالم ، فمن أين حصل عليه ؟ .

وهناك شئ آخر هو اللعب . إنه يوقف ، مؤقتاً ، « اتجاهنا نحو الموت » حيث نختبر مرة أخرى عدم موت « الطفولة فى داخلنا » ، فهو يقول إن اللعب شئ لا يمكن أن تجده فى عالم ليس له خالق أو هدف .

و « الأمل » علامة ثالثة من علامات وجود سلطة عليا ، إنه جزء لا يتجزأ من الاختبار البشرى فى كل مكان . إنه يظل حتى نهاية حياتنا ، إنه يشبه الخيط الفضى المنسوج فى اختبارنا فى جميع المواقف ، ولكنه ينبع من خارج ذواتنا .

وسمة أخرى من سمات السيادة العليا فى اختبارنا ما يدعوه برجر الدليل المستمد من طلب استنزال العقاب . إنه يفكر فى مواقف نشعر فيها بالثورة بسبب أفعال مثل قتل أعداد كبيرة من البشر على يد بعض الطغاة لدرجة أننا نعتقد أنه لا يوجد عقاب يكفى لتأديب من قاموا

بذلك العمل ، حتى الموت ذاته . وهذه ظاهرة لافتة للنظر ، فإذا كان الموت هو أقصى عقوبة فمن أين جاءت هذه الفكرة ؟ .

خامساً ، روح الدعابة والمرح ، إنه شئ يدعو للدهشة أن نجد ذلك فى عالم ليس له خالق شخصى . إن الدعابة تعترف بسجن روح الإنسان فى العالم ، وفى لحظة ما تحررها من قيودها . إنها تعطى الإحساس بالمقاييس الصحيحة للأشياء ،مما يجعل المأزق الذى تجتازه وقتياً ومحتملاً.

إن هذه الدلائل على وجود شئ ما أو شخص ما وراء الكون يمكن التحدث عنها باستفاضة . ولكنى لا أريد أن أفعل ذلك الآن . فبدلاً من ذلك ، فإنى أود أن أسأل سؤالاً . افرض للحظة أن أغلبية البشر فى كل أنحاء العالم وعلى مر العصور على صواب ، وأن هناك إلهاً ، يصدر عنه كل شئ فى الوجود . وتخيَّل أنك أنت هو الإله . على أى حال ! إذا كانت الممثلة والمؤلفة «شيرلى ماكلين» قد فعلت ذلك ، فلماذا لا تفعل أنت ؟ ما الذى تفعله إذا أردت أن تكون قريباً من الكائنات البشرية التى خلقتها على شبهك ، ولكنها لا تريد أن تعرفك ؟ .

بصمات فى الرمال ؟

قد تبدأ بأن تخلق عالماً رائعاً ، عالماً ينطق بوضوح بمحبة ومهارة وقوة الخالق . ربما فعل الله ذلك .

وربما تخلق بشراً قادرين على الاستجابة للمحبة ، بشراً لديهم تلك الهبة الخطرة وهى الإرادة الحرة ، قادرين على الامتثال لك أو رفضك ، ولديهم تلك المقدرة الإلهية تقريباً والخاصة بتقرير المصير والاختيار الحر ، ربما قبل الله بهذه المجازفة وفعل ذلك أيضاً .

ويمكنك بعد ذلك أن تستمر فى تخيلك وتضع فى قلوب هؤلاء البشر قيماً تعبر عن الله ، قيماً كالجمال والصلاح والتناغم والإبداع والقدرة على التعبير ، والصدق والحب . بالطبع إنك لا يمكن أن تفرضها عليهم . إنهم ككائنات حرة ، فى إمكانهم أن يختاروا العكس - وهم يفعلون ذلك فى أغلب الأحوال . ولكن هذه الصفات حيثما وجدت ، فهى تشير إلى الواهب ، ذلك الذى هو الجمال الذى لا يمكن التعبير عنه ، ومنتهى الصلاح ، والتناغم التام ، والإبداع اللانهائى .

إنها بصمات الله التى يتركها فى رمال حياتنا. ربما فعل الله ذلك .

قد تعجبك فكرة عمل « ضمير » داخل الإنسان ينبه مخلوقاتك إلى ما هو صواب وما هو خطأ . ضمير يوافقهم عندما يختارون الطريق الصائب ، ويوخزهم ويحذرهم عندما يضلون بعيداً عن إرادتك التى كانت الخير الأسمى . ضمير يظل عاملاً على الرغم من محاولتهم تعطيله أو إسكاته . هل يمكن أن يكون الله قد فعل ذلك أيضاً ؟ يمكنك بعد ذلك أن توجد فى حياتهم فراغاً لا يملأه إلا الله الحى نفسه ، فراغاً يصرخ طلباً للإشباع والارتياح مهما حاولوا أن يملأوه بكل تفاهات هذا العالم . إنه فراغ يستخرج منهم تلك الصرخة التى جاءت على شفتى أوغسطينوس منذ عدة قرون مضت : « يا ألله ، لقد خلقتنا لنفسك ، وقلوبنا لا تستريح حتى تجد راحتها فيك » . ربما فعل الله ذلك أيضاً .

ربما تظهر يدك فى مسار التاريخ ، وربما تضمن أن غطرسة الأمم والحضارات تقود حتماً إلى الفساد ثم السقوط . وربما تركز على إنسان واحد وعائلة واحدة وقبيلة واحدة وأمة واحدة لكى تثق فيك وتطيعك ، والتى يمكن بمضى الوقت أن تتدرب على أن تقبلك وربما تتبع تعاليمك وإرشاداتك . وربما تجتاز هذه الأمة فى الدماء والسبى وهى تتعلم هذه الدروس ، ولكن لأن المخاطر عظيمة ، فإنك تثابر معها وتتحمل معاناة شديدة بسببهم . إن الكثير يتوقف على فهمهم وطريقة حياتهم إذا كان لابد أن تصل من خلالهم إلى كل العالم الهالك البعيد عنك .ألم يفعل الله ذلك بالضبط مع شعب إسرائيل ؟ .

وأخيراً ، فمن المتصور تماماً ، أن تأتى « شخصياً » إلى عالمهم . وأنت مضطر فى هذه الحالة أن تأتى كواحد منهم ، لأنك إذا كشفت عن نفسك فى كل جمالك الباهر ، فإن بهاءك سوف يعمى أبصارهم . إنك محتاج أن تأتى برقة متنكراً وأنت محتاج أن تتعلم لغتهم تماماً دون أن تكون هناك أى لكنة أجنبية ، حتى يمكنهم أن يعتبروك واحداً منهم . إنك سوف تدفع ثمناً باهظاً ، وعليك أن تحبهم محبة كثيرة جداً إذا كنت سوف تهبط لمستواهم . إن ذلك أشبه ما يكون عندما يصبح واحد منا فأراً أو قوقعة ، حتى يمكن أن تتفاهم بسهولة مع مثل هذه المخلوقات المتواضعة . ولكن ماذا لو عمل الله ذلك أيضاً ؟ .

تأمل فى فقرة من أقدم فقرات العهد الجديد (فيلبى ٢ : ٦ - ١١) . إنها رسالة القديس بولس إلى كنيسة صغيرة فى اليونان ، وهى عبارة قوية ومثيرة تتحدث عن التنازل المذهل الذى نتكلم عنه .

« الذى { يسوع المسيح } إذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله . لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً فى شبه الناس . وإذ وُجد فى الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت ، موت الصليب . لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم . لكى تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن فى السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض . ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب » .

هل نحن وحدنا فى هذا الكون ؟ أو هل هناك آثار أقدام فى الرمال تقودنا برقة إلى الشخص الذى أوجد هذه الآثار ، وعاش بيننا ، ومات بيننا ؟ . إن لنا الامتياز أن نتخذ القرار بشأن الاتجاه الذى يقودنا إليه الدليل ، فنحن ذوو إرادة حرة . وعلينا جميعاً أن نؤمن - إما إيمان الملحد بأنه لا يوجد إله أو إيمان المؤمن بأن الله موجود . إنه إيمان على أى حال . ولذا فكيف تكون استجابتك ؟ هل كان كارل ساجان محقاً عندما قال : إن الكون هو كل شئ كان فى الماضى ، أو كائن فى الحاضر ، أو سيكون فى المستقبل ؟ أم أنه قد أخطأ فهم البصمات التى تركها الخالق ؟ .

استمر فى القراءة لتتعرف على مزيد من البصمات !

الفصل الثانى

الهوية

أسئلة الهوية

فى متحف الفنون الجميلة فى بوسطن بولاية ماسا شوسيتس ، هناك لوحة شهيرة رسمها الفنان بول جوجان (Paul Gouguin) ، وهى تقدم أكثر ثلاثة أسئلة فاحصة :

من أين جئت ؟ من أكون أنا على هذه الأرض ؟ إلى أين أذهب ؟ ولا حاجة بنا إلى القول إن الرسام لا يقدم لنا أية إجابات ، ولا يفعل ذلك أى شخص آخر هذه الأيام . إننا مستغرقون تماماً فى كل مباهج الحياة من حولنا من طعام ولباس ومتعة ، وتكنولوجيا المعلومات ، لدرجة أننا لا نفكر فى مثل هذه الأسئلة الحيوية . وحتى الفلاسفة قد كفوا عن إثارة هذه الأسئلة من بين معظم القضايا المثارة : لقد مالوا إلى اختصار تساؤلاتهم على التحليل اللغوى . فمواجهة مثل هذه الأسئلة الصعبة تعد مواجهة خطرة . لقد قضى أفلاطون وقتاً طويلاً وهو يتفحص الحياة الطيبة، وطبيعة العدالة . وبذل أرسطو جهوداً جبارة فى موضوع الأخلاق . ولكن عامة الناس من أمثالى وأمثالك لا يفعلون ذلك. فالحياة قصيرة جداً - بل وأليمة أيضاً - حتى إنها لا تتحمل كل هذا البحث والتقصى .

ومع ذلك ، فهذه الأسئلة الصعبة تسبب الضيق لكل واحد فينا فى بعض الأحيان ، ربما حين نرقد فى فراشنا فى حالة من اليقظة بالليل . إنها أسئلة لا يستطيع الإلحاد أن يقدم جواباً لها ، وهى تلحّ علينا باستمرار . لقد عبَّر عن ذلك فتى يبلغ الرابعة عشر من العمر :

« لم أنا هنا ؟ ما الذى فعلته ؟ ولماذا وُلدت ؟ من يهتم بى ؟ من أنا ؟ لماذا نعيش ؟ لأجل

الحب ؟ لأجل السعادة ؟ لماذا لا أنتحر ؟ إنى أكره هذا العالم . أكره والدىّ وبيتى - على الرغم أنى لا أعرف سبب ذلك . لقد بحثت عن الحقيقة ولكنى لم أجد سوى عدم اليقين . لقد أغلقت السبل فى وجهى أثناء بحثى عن الحب ، أين أستطيع أن أجد السعادة ؟ لا أعرف ، وربما لن أعرفها .

وواجه ديتريش بونهوفير (Dietrich Bonhoeffer) الأستاذ الشهير الذى تميز بالوطنية ، مثل هذه الأسئلة الفاحصة عندما كان حبيساً فى سجن النازى قبل إعدامه لاتهامه بالتآمر لاغتيال هتلر :

« من أنا ؟ هل لى شخصية واحدة أم اثنتان ؟ هل أنا شخص اليوم وشخص آخر غداً ؟ وهل أجمع ما بين الشخصيتين فى آن واحد ؟ إن هذه الأسئلة الحائرة تسخر منى » .

ولكن لأنه كان مسيحياً مؤمناً ، فقد جرؤ على إنهاء تأملاته بالقول : « مهما أكون ، فأنت تعلم يا الله ، أنى ملكك » .

وقد تساءل مؤخراً برنارد ليفن (Bernard Levin) الصحفى وهو يغمره شعور حاد وقوى : « لنتكلم بصراحة ، هل لدىّ وقت لاكتشاف سبب ولادتى قبل أن أموت ؟ ... إنى لم أتمكن من الإجابة على هذا السؤال بعد ، وعلى الرغم من أنه يتبقى أمامى سنوات عديدة فى الحياة إلا أنها بالتأكيد ليست عديدة كالسنوات القادمة بعد وفاتى . هناك خطر واضح فى ترك الأمور حتى وقت متأخر ... لماذا يتحتم علىّ معرفة سبب ولادتى ؟ لأنى بالطبع ، لا يمكننى أن أصدق أن ولادتى كانت صدمة ، وإذا لم تكن كذلك ، فلابد لها من معنى » .

إن هذه المشكلة الخاصة بالهوية الشخصية ضاغطة ومحيرة هذه الأيام . فهناك الهندسة الوراثية ، وهناك قدر كبير من التلاعب عن طريق الإعلان ، وهناك ضغوط ارتداء الأزياء العصرية ، والتأثير القوى للزملاء والرفاق ، والضغوط الواقعة علينا من الاتحادات والإدارة . دع عنك الضغوط الواقعة على الأفراد من الحكومات وسوق العمل . إن تعقيد عصر الكمبيوتر يعنى أن البنوك والشرطة وشركات التأمين تعرف الشئ الكثير جداً عنى ، حتى إن هناك حاجة ملحّة

لإصدار قوانين جديدة لحماية الخصوصية الفردية . ولكن فى وسط كل هذه الأشياء ، من أكون أنا ؟ هل أنا مجرد رقم ؟ هذا ما يعنيه السجناء فى السجون ، وما أعنيه أنا لهيئة المواصلات السلكية واللاسلكية ... إن مايكل جرين غير موجود وفقاً لحساباتهم ولكنه موجود كرقم فقط . يعبر ستيف ترنر عن ذلك جيداً فى كتابه « البرهان » :

- هل لك أى هوية ؟
- بطاقة ائتمان ؟
- امتياز معين ؟
- ضمان بنكى ؟
- رخصة قيادة ؟

– إذن ، إنى آسف يا سيدى .

– إنك غير موجود .

هل أنا مجرد مجموعة من المواد الكيمائية التى تتفاعل مع بعضها البعض ؟ يتحدد مصيرها بناء على المادة التى أتكون منها ؟ هذا ما يريدنى فلاسفة السلوكيين أن أؤمن به . وعندى مشكلة شائكة ، فمن « أنا » الذى توصل إلى هذا الاكتشاف العاصف ؟ وما هى قوة الحجة على أنى مسيَّر تماماً ؟ وهل المفروض أنها ذات قيمة حقيقية ؟ مستمدة منه ؟ كيف يحدث ذلك ؟ لأنها هى أيضا مسيَّرة تماماً – عن طريق جزيئات المخ الذى أعلن هذا الزعم ! إن جميع الحجج التى تؤيد أن الإنسان مسيَّر والتى تقلل من قيمة كرامة البشر ، هى فى الواقع تهدم نفسها بنفسها . إننا من المفروض أن نتفق معها لأنها مقدمة كشئ حقيقى . ولكن على أساس الإيمان بأننا مسلوبو الإرادة . لا توجد حقيقة ثابتة : فإنى أقبل الحجة أو أرفضها طبقاً لموقف الجزيئات العقلية عندى ، وجميعها مسلوبة الإرادة ! كلا ، إن ذلك لا يصلح كتفسير لهويتى .

هل أنا ببساطة عديم القيمة ؟ إن عدداً كبيراً من الناس يشعرون هكذا اليوم . فأعداد كبيرة منهم قد أسئ إليهم فى طفولتهم ، وأعداد أكثر لم يعرفوا أبداً معنى أن يحبهم أحد حباً صادقاً

دون فرض قيود عليهم . إن نصف الزيجات تقريباً في الغرب تنتهي بالطلاق ، وقد كشفت الأبحاث الحديثة بوضوح - أن الأطفال هم الذين يعانون بشتى الطرق ، ولكن أغلب الحالات تتركز في الشعور بالنقص وعدم الجدارة . لا أحد يهتم بي . لا يهم إذا مت - وهذا هو السبب في أن أعداداً متزايدة ممن هم أقل من ٢٥ سنة ، خاصة بين الذكور ، يفكرون في الانتحار ، وكثير منهم يُقدمون عليه بالفعل . على أي حال ، فإن والديَّ لا يريدانني ، وصديقتي أو صديقي يتخلى عني . ولا توجد وظائف خالية على الرغم من حصولي على قدر جيد من التعليم ، وإذا كنت محظوظاً بقدر كاف وجدت وظيفة ولكنها لا تتناسب مع مستوى التعليم الذي حصلت عليه . ولأول مرة منذ مدة طويلة ، فإن الشبان الصغار اليوم يتوقعون أن يكونوا أردأ حالاً من والديهم . على أي حال ، فالكمبيوتر يحل محل البشر على الدوام . ولذا فإني أصبحت شخصاً غير مهم . إن دواخلنا تخبرنا أن هذا شعور زائف ولكن الظروف تتآمر لتقنعنا أنه صحيح . ومن هنا يصبح الارتباك والغضب واليأس شائعاً بين الشباب .

أم هل أنا شخص رائع ؟ هناك المتفائلون الذين يقولون إن العالم يتحسن باستمرار ، وإنه يستحسن أن نتعلم أن نصبح كالآلهة ، فعليك أن تتحصن في الجامعة لتؤمن بذلك هذه الأيام . تنبأ اليكس كومفورت أنه بعد مائة سنة سوف يصبح لكل فرد من سكان العالم ، الذي سيصبح عدد سكانه ١٥ بليون نسمة ، ثلاثة منازل وسيارتين (ومما يدعو للدهشة) غواصة ، هذا إذا افترضنا أن سلوكنا كان معقولاً . وهنا المحك الحقيقي ! فنحن يبدو أننا لسنا بقادرين على أن نسلك سلوكاً معقولاً . هناك اعوجاج في الطبيعة البشرية والعالم ليس مكاناً صالحاً : إنه مكان شرير . أي جيل شهد الإبادة الجماعية كالبوسنة أو السودان ؟ أي قرن شهد كل هذا الرعب ، وقتل الأجنة ، وهذا الفساد الذي يدب في قاع المدينة ، وهذه المجاعات والجرائم ؟ كلا ، إني لست رائعاً ، ولا أنت كذلك .

مسائل تتعلق بالنوع

كل شئ يزداد تعقيداً فى هذا العصر الذى يطلق عليه عصر ما بعد الحداثة . ماذا يعنى أن تكون ذكراً أو أنثي اليوم ؟ إن فوضى النوع شائعة . إن ذلك يظهر ببراعة فى فيلم قد تحول على غير توقع إلى فيلم حقق إيرادات ضخمة وهو يدعى « اللعبة الباكية » يتضح هنا أن بطلة الفيلم رجل ، كما تتحول العلاقة بينها وبين الإرهابى المعادى للبطل إلى علاقة جنسية . ولكن الولاء والرقة تبقيان ، بالرغم من عقوبة السجن . إنه يعبر ببراعة عن الفوضى الحالية التى تسود الدور الذى يقوم به كل من الذكر والأنثى فى المجتمع ، ويؤدى هذا بالطبع إلى انتشار التجارب الجنسية على نطاق واسع ، ولكنها فى الأغلب مليئة بالألم والإحباط . إن الحيرة والغضب لما أصبح يسمى بالجيل المجهول ، يزدادان حدة ، لقد أصبح الوضع اليوم أقل إظلاماً بالنسبة للنساء عنه بالنسبة للرجال فلا يزال هناك الظلم فى العمل وعدم المساواة فى الأجور ، ولا يزال هناك « السقف الزجاجى » الذى يعد من غير المألوف للمرأة أن تتعداه . ولا يزال هناك تأثير البيوت المحطمة والثقة المهشمة التى نشأ الكثيرون فى ظلالهما . والنساء يزددن نجاحاً فى مكان العمل بينما لا يستطيع الرجال الحصول على وظائف ، فيقعدون فى البيت للعناية بالأطفال . ولم تكن الكاتبة (شيرلى كونران) بعيدة عن الحقيقة حين كتبت عن النموذج المثالى للمرأة الخارقة . ولكن النساء تواجهن عذاب الشد والجذب بين العمل والبيت ، فيقضين سنوات للحصول على الدرجات العلمية والتدريب المهنى : ويبدو أنه من السخف الكف عن ذلك والتخلى عنه . ولكن يبدو أنه من السخف كذلك إنجاب الأطفال وتركهن لرعاية الآخرين لتنشئتهم . وعلى الرغم من التقدم الهائل فى الحركة النسائية فى نصف القرن الأخير ، يظل السؤال المحير : « كيف أستطيع الحصول على أكبر قدر من الفائدة من حياتى ؟ من أنا فى واقع الأمر ؟ » . إن الأمور أكثر صعوبة حالياً بالنسبة للرجال ، فإن فترة الستينيات المثيرة غيرت النساء ولكن فترة التسعينيات التعليمية تغير الرجال . إن شبان هذا الجيل هم أول من نشأ على أساس المساواة مع النساء . فمن المتوقع أن يكونوا حساسين يتسمون بالرجولة ، ويطبخون الطعام كما يمارسون الرياضة ، ويعطون حمّاماً للأطفال ويقضون الوقت فى العناية بهم ، ولا يتركون كل شئ لشريك الحياة . عليهم أن يكونوا

أقوياء ومع ذلك عليهم أن يتخلصوا تماماً من الموقف العدائى للجنس الناعم والغرور والتعالى اللذان أصبحا شائعين على مر القرون المتعاقبة . ومن المفروض أن يحدث التغيير الآن فى جيل واحد - وهو الجيل الذى ربما تثبت فيه المرأة أنها الشريك الأفضل لكسب لقمة العيش كما أنها ربة البيت .

تبرز (زوزالند مايلر) فى جريدة الـ Independent أزمة الرجال بطريقة جيدة فتقول :

« على مدى العشرين عاماً الماضية ، فإن الحركة النسائية أخذت تعيد رسم الخرائط ، وتعيد كتابة القواعد وتعيد تحديد معانى الأشياء التى لم يكن أحد يناقشها على مدى آلاف السنين . ولكننا لم نفكر فى الرجال ... وقد تُرك عدد كبير من الرجال وهم يشعرون أنهم أشبه ما يكونون بالأولاد التائهين فى عالم ما بعد الآباء المؤسسين للبلاد حيث قضى على امتيازاتهم وحقوقهم .

أين مكان الرجال فى الصورة ؟ فللرجل كل الحق أن يتساءل « من أكون بحق الجحيم ؟ ». هذا بالضبط هو السؤال الذى واجهه الممثل والكاتب ديرك بوجارد (Dirk Bogarde) ، عندما حقق النجاح والشهرة فى عمله : لقد أحببت كل شئ ، ولكن هناك شك ينتابنى ، شك واحد فقط . من أكون أنا بحق الجحيم ؟ إنى أشعر بفراغ هائل ، وعلى الرغم من المنزل والسيارة وكل عائلتى وممتلكاتى ، فإنى لا أشعر أنى أنتمى لشئ ما » .

مسائل تتعلق بالكتاب المقدس

ما رأى الكتاب المقدس بشأن كل هذا ؟ ماذا يقول بشأن هويتى وقيمتى ؟ إنه يقدم وجهة نظر مختلفة ، ومن منظور عجيب يخلب الألباب ويفوق أكثر أحلامنا إغراقاً فى الخيال . إنه شئ يتطلع إليه البشر ولكنهم لا يتجاسرون على تصور احتمال حدوثه . وكما رأينا فى الفصل السابق ، يمكن إثبات ذلك من واقع حياة إنسان مثل كارل ساجان . فقد بدأ كمادى ملحد تماماً ، ولكنه غيَّر من لهجته تغييراً جذرياً . ففى كتابه « الاتصال » انتهى بتصوره للمخلوقات القادمة من الكواكب الأخرى إلى الأرض لتهبنا الحياة والمعنى وتدخل معنا فى علاقة - وهى

فكرة توحي لنا عن بديل الله يعلن عن ذاته .

نعم ، هناك جوع في قلوبنا للعلاقة ، لأن نحب ، وجوع للبحث عن معنى ، وكأن الكتاب المقدس يقول بالفعل : « ليس هذا بمستغرب ، فالله المحب الأعظم غرس تلك الأشواق فى قلبك » . فى الأصحاحات القليلة الأولى من سفر التكوين نكتشف هويتنا . والصورة مرسومة بألوان واضحة وهذا ما تقوله .

إذا أردت أن تعرف من أنت ، فعليك أن تبدأ بالبداية الأولى . إن هذا يعنى أن تبدأ مع الله الحى ، المصدر الشخصى لكل الوجود . وبالمناسبة فهنا نجد السبب فى أن التعليم المسيحى عن الله كثالوث فى منتهى الأهمية . فالمصدر النهائى الذى ندعوه الله هو النموذج الأصلى ليس لواحد فقط بل للكثيرين ، ليس فقط للذكر بل للأنثى أيضاً . فالوحدة والتعدد كلاهما مستمدان من الله . وعندما يخبرنا الكتاب المقدس أن الله محبة ، فهذا يعنى أن طبيعته تعبِّر عن التضحية المتبادلة بالذات ، علامة اختبار الحب الحقيقى . فهو محب ومحبوب ، ومحبته قد ظهرت بأوضح ما يكون فى الخلق - كما تفعل المحبة دائماً . إنه خلق عالمنا هذا بالحب . لقد أراد أن يكون له خلائق خارج ذاته حيث يمكنه أن يفيض عليهم بحبه . وهكذا أوجد الجنس البشرى إلى خير الوجود . وهذا هو السبب فى أن كل واحد فينا متميز عن الآخرين ، كل واحد منا له قيمة ذاتية . فليس هناك شخص آخر فى كل هذا العالم الفسيح يشبهك . إنك نمط فريد . لقد صنعك الله لتشارك عالم الحيوان ، ولكنك قادر أيضاً على أن تشارك الله فى الحياة (تك ٢ : ٧) .

لقد جعلك الله تاجاً لعملية الخلق ، لتكون واحداً من معاونى الله فى ممارسة السيطرة الخيِّرة على العالم ، وقد قصد أن يكون الجنس البشرى مسئولاً كوكيل أمام الله ، وليس رأسمالياً مبتزاً لأموال الآخرين ومجهودهم ، إن المسيحية الحقيقية لابد أن تعنى ثورة خضراء ، على الرغم من أنها كانت بطيئة فى إطاعة دعوة الوكالة الإلهية على عالمنا .

لقد أوجدنا الله على صورته ، وهذه الصورة تظهر فى وضوح تام فى الرجال والنساء معاً ، وهى علاقة مؤسسة لا على التنافس بل على أن يكمل كل جنس الجنس الآخر .

إن الله يحبنا ، على الرغم من أن ذلك يبدو مدهشاً ، لقد أحبنا كثيراً حتى أنه وضع الجنس البشرى فى جنة ، ولكن يا للحسرة ، فقد دنسناها ، كما ندنس العالم اليوم . إنه يحبنا لدرجة أنه يريدنا أن نشاركه حياتنا ونمشى معه فى الجنة عند هبوب ريح النهار (تك ٣ : ٨) . ولكننا نشعر أن فى ذلك تهديد لنا . فنختبئ من هذه الإلفة الإلهية ، ونتمرد . إننا لسنا مستعدين أن نفعل الشئ الذى يطلبه منا (تك ٢ : ١٦ و ١٧) . إننا ندير له ظهورنا . إننا لا نريد أن نعرف. ويدخل الخجل حياتنا ، ثم الشعور بالذنب والاغتراب عنه . إن الشك واللوم المتبادل يفرّق بين آدم وحواء ، ويقتل واحد من ولديهما الولد الآخر ، وتصبح العائلة ميدان معركة ، ويصبح الله مصدر التهديد الأعظم ، وليس المحب الأعظم . ولكنه يظل محباً . إنه يحب آدم وحواء كثيراً حتى إنه يأتى ليبحث عنهما فى حين أنهما يحرصان على الابتعاد عنه . أليس ذلك هو نفس ما يحدث فى الوقت الحاضر ؟ كان عليه أن يدينهما ، وهذا عدل ، ولكنه يعمل أقمصة من جلد ليكسو عريهما بكل حب . إن هذه القصة الواردة فى سفر التكوين والتى تصلح لكل زمان ترينا مقدار محبة الله للجنس البشرى ، تلك المحبة الكثيرة التى تجعله يرتب لنا طريق العودة للبيت الذى حطمناه تماماً .

هذا هو الإله الذى أعرفه وأحبه وأعبده . وفى الحقيقة ، وبالرغم من كل مال يمكن أن أمتلكه ، فهذا الإله وحده جدير بالعبادة . إن محبته وبهاءه ، وتواضعه الذى يصعب تصوره ، يجعلنى أحنى ركبتىّ فى ضوء هذا المصدر ، وذلك الثمن الذى دُفع ، واحتمال العلاقة والعودة ، أعرف من أنا ، ومن أين أتيت ، وإلى أين أذهب . إنى لم آت من بعض الكائنات الحية الدقيقة والتى تبقى لبضع سنوات قليلة كحاملة للجينات ثم أختفى كما تنطفئ الشمعة . كلا ، إنى خرجت من عند الله . وقد أعطيته ظهرى عدة سنوات وجاهرت بأن الله غير موجود . ولكن قررت أن أعود إلى الله من اغترابى ويأسى ، فوجدت ذراعيه المحبة أفضل ما يمكن الاعتماد عليه فى كل هذا العالم . إنى أحيا هذه الحياة فى شركة معه . وفى نهاية النهار ، فإن مصيرى ليس مجرد الانقراض بل الشركة الدائمة معه . فإن ضحيت بكل شئ ، وسلمت نفسى لله بدلاً من التمسك بوجهة النظر المادية والملحدة ، فذلك يشكل فرقاً جوهرياً فى طريقة معيشتى .

مسائل تتعلق بموقفي من العالم .

إن ذلك يشكل اختلافاً فى كيفية نظرتى للنواحي العرقية . فالأجناس المختلفة متساوية ، ولا يتفوق فيهم جنس على الآخر ، ولكن هذه الأجناس تكمل بعضها الآخر . إنهم ليسوا أعداءً بل شركاء . إنهم مختلفون ، ولكن مصدرهم نفس الآب السماوى ، ولذلك فهم متميزون وجديرون بعظيم الاحترام .

كما يشكل اختلافاً فى كيفية نظرتى للمحميات الطبيعية ، فليس من حقنا أن نسئ لهذا العالم ، بل أن نعتنى به ، فهو ليس عالمنا بل عالم الله . ولذلك فنحن بحاجة للتعامل معه من واقع المسئولية والاحترام ، وليس فقط لأجل الأجيال القادمة ، بل لأجل الله ذاته . فالمسيحيون بحاجة أن يكونوا فى مقدمة العاملين للحفاظ على البيئة وصنع السلام وما شابه ذلك . إننا بحاجة أن نطالب بأسعار مرتفعة نسبياً على مستهلك أشياء مثل البن والفاكهة حتى يستطيع منتجو المحاصيل أن يحصلوا على أجر جيد يمكنهم من أن يكسبوا لقمة العيش ، ولا يكون هناك داع لكى يقوم أفراد القبائل المحلية الفقيرة بقطع بقايا غابات الأمازون لإقامة مساكن لهم . إننى بحاجة لممارسة ضبط النفس والتحكم فى استخدام أجهزة التبريد والمبيدات الحشرية والمعلبات البلاستيكية التى لا تفرز مواداً كيميائية ضارة تقضي على طبقة الأوزون بالمركّبات التى تحتوى على الكلوروفروكربون . إن نظام المحميات لدينا يحتاج لتوازن ، فنحن فى خطر يعجل بالقضاء عليه وتحويل عالمنا إلى صحراء فى مدة لا تتعدى جيل واحد . إن نظام المحميات يجب أن يكون الشغل الشاغل لأى مسيحى يأخذ عقيدته على محمل الجد .

ويشكل اختلافاً فى كيفية معاملتى للمسنين والعاجزين ، أولئك الذين لم يعد المجتمع يعتبرهم نافعين . فمن المنظور المسيحى فإن قيمتهم لا تنبع من صحتهم أو قوتهم ، ولا قدرتهم على الإنتاج أو مقدار نفعهم للمجتمع . كلا ، إنها تنبع من حقيقة أنهم مخلوقون ليكونوا أبناء وبنات القدير . إن قيمتهم تنبع من داخلهم ، من هويتهم وليست مكتسبة مما يفعلون . ونفس هذه الوجهة يجب أن تمتد للأجنّة ، فليس من حقى أن أتخلص منها وفقاً لما يريحنى . فإن الحياة التى تدب فيها ، مثلى تماماً ، إنها حياة معطاة من الله ، وهى مخلوقة على صورته ، خصيصاً .

ويشكل اختلافاً في سلوكي الجنسي . فكمسيحي ، لا أنظر للجنس كشئ ألهو به بل كفريضة مقدسة من تبادل في التضحية بالنفس بين اثنين يحب كل منهما الآخر محبة يرغبون أن تدوم طوال الحياة . إني أعلم أن ذلك قد يكون مخالفاً لما يجري في المجتمع من ممارسات ، ولكني مقتنع أنه الأسلوب المثالي . ثم إن وجهة النظر المسيحية ، على أي حال ، إنسانية بدرجة كبيرة . فما الذي يمكن أن يكون أكثر إذلالاً واستغلالاً بالنسبة لي من أن أقيم مع شريكة الحياة وهي شابة وبصحة جيدة ومثيرة جنسياً - ثم أتركها لأبحث عن نموذج أكثر عصرية عندما تبدأ في الذبول والضعف ؟ ومع ذلك فهذا ما يعتبره عالم اليوم الجرئ شيئاً عادياً . كلا ، إنه ليس شيئاً عادياً ، إنه مرض . إني أنظر للجنس الآخر ليس كشئ يمكن أن أستفيد منه وأغتصبه ثم أنتهك حرمته ، بل كشخص أقدم له نفسي في رقة وألفة طوال الحياة . ففي أعماق قلوبنا نتطلع كلنا لحب كهذا الحب . المشكلة أنه صعب جداً . وهنا تأتي المعونة من الله - ولكن لنطلب المزيد منها الآن .

ويشكل اختلافاً في احترامي لذاتي . فأنا لست مجرد طالب أو منتج أو ربة منزل أو رقم في الكمبيوتر . إن لي ذاتاً متميزة ، وأنا مخلوق لا مثيل له قد صممه الله نفسه . إن المرنِّم قد عرف ذلك جيداً فقال :

« لأنك أنت اقتنيت كليتيَّ ... نسجتني في بطن أمي ... أحمدك من أجل أني قد امتزت عجباً ... عجيبة هي أعمالك ونفسي تعرف ذلك يقيناً ... لم تختف عنك عظامي حينما صُنعت في الخفاء ورقُمت في أعماق الأرض . رأت عيناك أعضائي وفي سفرك كلها كُتبت يوم تصورت إذ لم يكن واحد منها . ما أكرم أفكارك يا الله عندي ما أكثر جملتها . إن أحصها فهي أكثر من الرمل . استيقظت وأنا بعد معك » (مز ١٣٩ : ١٣ - ١٨) .

ولذا فأنا لست مجرد مجموعة من المواد الكيمائية في محلول ، ولا أنا عنقود من الجينات الناضجة . إني ابن لله . إني أستطيع أن أرفع رأسي عالياً . فأنا لست شيئاً تافهاً ، يمكن الاستغناء عنه ، لست شيئاً بلا معنى . كلا ، إني ابن أو بنت للقدير . إن لي بصمات أصابع مختلفة عن أي شخص آخر في العالم كله وكذلك حامض الـ د. ن . أ الذي يختلف عن كل ما

عداى . إن لى قيمة عند مصدر كل حياة . إن لى قيمة جعلت الله يهتم ويخلقنى ويعولنى لحظة بلحظة . إن ذلك يولد فىَّ مزيجاً من الرهبة والثقة .

وبالطبع فإن ذلك يشكل اختلافاً فى كيفية نظرتى للموت ، فهو لم يعد الخطر الأكبر ، ولم يعد الطاغية الذى لا يرحم الذى يحصدنا جميعاً بلا تميز ولا يعرف الشفقة . إنه ليس النهاية ، ولكنه نهاية البداية . فإن كانت لى صلة بالإله الذى يحبنى ولن يتخلص مما هو ثمين لديه ، إذن فالموت كالباب الذى يؤدى لحجرة داخلية فى بيت الله الذى أعيش فيه بالفعل كأمير أو أميرة . إن الموت مرعب فى الحقيقة ، ولكنه لن يسلبنى من مركزى السامى ، بل إنه على العكس سوف يجعل علاقتى بالله أوثق . لقد أكد يسوع ذلك . وقدَّم دليلاً قوياً على أن كلمته يجب أن تكون موضع ثقة . ولكن ذلك أيضاً ، يمكن الإفاضة فيه فى فصل آخر .

أسئلة صعبة

هناك فرق كبير فى كيفية تعاملنا مع هذه المشكلة الصعبة الخاصة بالهوية الشخصية . فقد كان وودى آلان على حق حين قال : « لن يكون هناك حل لمعاناة الجنس البشرى حتى يصل لفهم هويتنا ، والهدف من خلقنا ، وما يحدث لنا بعد الموت . فما لم تحل هذه الأسئلة ، فإننا نظل فى مأزق » .

فكر جيداً قبل أن تقرر . انظر شرقاً حيث تنتشر عقيدة تناسخ الأرواح . هل أنت محكوم عليك ببرنامج من الدورات اللانهائية حتى تنتهى ككائن مزود بالحواس والمشاعر وتتحد من جديد بالكائن الأعظم ، فيختفى كل ما تتميز به ، وكل ما تدركه وكل هوية لك ؟ إن هذه إجابة على سؤال الهوية الشخصية . هل هناك ما يزكيها ؟ .

ولك الخيار أيضاً فى أن تتفق مع الفلسفة المادية العصرية التشاؤمية . ويمكنك أن تتبع الفلسفة اليائسة لفنان مثل فرانسيس بيكون الذى يقول : « إن الإنسان يدرك الآن أنه مجرد مخلوق وُجد بالصدفة ، وأنه كائن عبثى تماماً ، وأن عليه أن يلعب اللعبة بلا أى سند من

منطق » . يمكنك أن تغضب لهذا الموقف ، إذا أردت ، كما فعل ديلان توماس :

« لا تكن رقيقاً في تلك الليلة الطيبة .... فكبر السن يجب أن يحترق بالنار ويزداد الغضب عند ختام النهار ... غضبت ، غضبت لموت الضياء » .

الغضب بكل السبل . إنه لن يؤدى لأى نتيجة فى النهاية ، ولكنه سوف يؤثر تأثيراً كبيراً على إحساسك بالهوية الشخصية والقيمة .

والاختيار الآخر هو المنظور المسيحى . فلأنك خليقة الله ، فأنت ثمين عنده . ثمين لأنه صنعك ، وثمين لأنه اعتقد أنك تستحق أن يموت لأجلك . ثمين لأنه يؤكد لك وعلى استعداد أن يبرئ ساحتك وأن يضمك لعائلته ، ثمين لأنه مهتم بأن يقتسم معك المعيشة اليومية ، ثمين لأنه سوف يستخدمك لخدمته ولن يطردك ، ثمين لأنه فى نهاية النهار سوف يرحب بك عند العودة للبيت السماوى . إن هذا فهم رائع للهوية الشخصية . ولكن هل هو حقيقى ؟ لابد من وجود أسباب جيدة إذا أردنا أن نقبلها فى عالم عصرى يبدو كئيباً وبلا معنى .هناك أسباب معقولة . واصل القراءة من فضلك ! .

الفصل الثالث

الشعور بالعزلة

عصر يتسم بعدم التقارب

إنى أدعو هذا الفصل « الشعور بالوحدة » بدلاً من الشعور بالعزلة لأن ما أتحدث عنه ينطبق على المنهمكين من المشاهير الناجحين ، وليس مجرد أولئك الذين يميلون من الناحية النفسية للعزلة . إنه ينطبق على الناجحين نجاحاً منقطع النظير . فالمغنى مايكل جاكسون العائد من رحلة إلى الشرق أكسبته ٧٠ مليون دولار ، قيل على لسانه :« أعتقد إني واحد من أكثر الناس شعوراً بالعزلة فى العالم». وعبّر واحد من الحاصلين على جائزة نوبل فى الأدب عن نفسه هكذا :

« لقد عبّرنا عن قلقنا وضيقنا ونحن نتحدث عن التوافه . لقد تساءلت عما كنت أفعله ، وشعرت أنى فقدت الاتصال بكل شئ حولى . فليس هناك شعور جديد ، ولكنه نفس الإحساس القديم يتردد بين آن وآخر . كنت أحس بمعركة داخلية بين مستوى المشاعر السطحية التى فقدت كل معنى ، وبين مشاعرى الداخلية التى كانت يجب أن تكون راسخة كالصخرة ، مهما نتج عنه إحساسها بالفراغ والعزلة . كان كل شئ يتحول إلى ما هو أردأ . كان الحاضر سيئاً بما فيه الكفاية : والمستقبل كان غامضاً مجهولاً . فالعمل وحده كان يعطينى إحساساً بالصحة ويجمع شتات نفسى التى تشعر بالتمزق » .

سئل الرسام المشهور انيجونى (Annigoni) ذات مرة عن الصورة التى يفضل أن يتذكره الناس بها فقال « العزلة » ، وقد رسم ما لا يقل عن ١٢ لوحة لها . لقد قال : « إن قناعة

حياتى تستند إلى الإيمان بأن الشعور بالعزلة فضلاً عن أنه أبعد ما يكون عن كونه ظاهرة نادرة وغريبة بالنسبة لنفسى ولبعض القلائل الذين يشعرون بالعزلة - فإنه الحقيقة الجوهرية التى لا يمكن الهروب منها فى الاختبار البشرى » .

أو كما عبَّر ذى بوليس (The Police) عن ذلك فى قصيدة عنوانها « يا إلهى » :

كل من أعرفهم يشعرون بالوحدة

والله بعيد جداً

وقلبى ليس ملكاً لأحد

ولذا فإنى أصلى أحياناً

من فضلك أزل الفراغ الذى يفصل بيننا

واملأه بطريقة ما

إن هذا الإحساس بالوحدة يشعر به عدد كبير من البشر. وربما لهذا السبب فإن هارولد بنتر، فى عام ١٩٩٥ ، أعاد إحياء مسرحيته التى مضى عليها ٢٥ عاماً « المناظر الطبيعية » وعرضها فى لندن . ولا يوجد فى المسرحية سوى شخصيتين ، رجل وامرأة عجوزان ، يعملان كخادمين فى منزل كبير . إنهما يجلسان إلى مائدة فى المطبخ طوال المسرحية (٤٠ دقيقة) ، ومع أنهما يتحدثان كلاهما ، إلا أنهما لا يتحدث كل منهما إلى الآخر بالمرة . إنها تعبير كلاسيكى عن الوحدة .

إن هذا الإحساس بالاغتراب أصبح إحساساً عاماً لدرجة أنه من المهم أن نسأل عن السبب فى ذلك . والإجابة لا يصعب أن نجدها . إنها موثَّقة بصورة رائعة فى كتاب دوجلاس كوبلاند « الجيل إكس Generation x» . إن الجيل إكس اسم غير محبب فى الولايات المتحدة يُطلق تعبيراً عن «الأطفال غير المرغوب فيهم » أو الجيل الذى أعقب الأطفال السعداء الحظ فى سنوات ما بعد الحرب . إننا لا نستخدم هذا الاسم كثيراً فى المملكة المتحدة ، ولكن لدينا نفس

الظاهرة ، وهى ظاهرة عامة . فأكثر من نصف عدد أفراد الجيل المولود منذ عام ١٩٦٠ قد جاء من بيوت محطَّمة ، وأغلبيتهم لديهم أمهات عاملة ، إنهم الجيل الأول من الأطفال الذين يحملون مفاتيح المنزل لأن والديهم يعملون ، فيضطرون للبقاء لوحدهم فى المنزل ، وعدد كبير منهم قد وقع عليهم اعتداء جسدى وجنسى فى آن واحد ، غالباً من قبل فرد أكبر سناً من أفراد العائلة أو من الحاضن أو حاضنة الأطفال . لقد شاهدوا عشرات الآلاف من الجرائم والمشاهد الجنسية فى التليفزيون ، ويذهب كلا الوالدين إلى العمل (إذا استطاعا) للحفاظ على مستوى أعلى للمعيشة ، ولكن الأطفال يشعرون أنهم مُهملون . إن والديهم بتصرفهم هذا يبلغونهم رسالة بأن المال والممتلكات أكثر أهمية من العلاقات العائلية . والبيت يبدو جحيماً بالنسبة لكثيرين منهم . وحين يشعرون بالملل من التليفزيون يهجرون البيت إلى الشارع . وبانضمامهم للعصابات ، فإنهم يجدون إحساساً بالانتماء لم يشعروا به فى البيت . فإذا كان ذلك يؤدى لممارسة الجنس قبل الأوان ولتعاطى المخدرات والجريمة والعنف ، فما نتيجة ذلك ؟ إن كثيرين منهم لم يعرفوا الحب الحقيقى أبداً ، ولم يتعرضوا أبداً لمواقف تتطلب الاعتماد على النفس وتحمل المسئولية ، فكل واحد يحيا حياته وحده . ولأنهم قد نشأوا على يدى الجيل الأنانى من قبلهم ، فمن يشعر بالاندهاش إذا فكروا فى أنفسهم فقط ؟ فهذا هو النموذج الوحيد الذى رأوه . ومن يندهش إذا مارس الأطفال الجنس مع الآخرين ؟ على أى حال ، فإن هذا ما يفعله والدوهم . ومن يلومهم لأجل العنف والسرقة لو نشأوا فى جو من الفساد المالى والمشاجرات العائلية واعتداء أفراد الأسرة على بعضهم البعض . إن عليهم أن يعتنوا بأنفسهم حتى يبقوا على قيد الحياة . فلا شخص آخر يبدو أنه يهتم بهم . حقيقة أنهم يتعرضون لكثير من الضغوط من البيت والمدرسة للاستمرار فى مواصلة التعليم ، ولكن عندما يتخرجون فإن البطالة تلاحق ما يزيد عن ١٦٪ على مستوى الأمة ، ولذا فهناك سبب قوى يدعو للتشاؤم . فعدد كبير من الشباب الذى حصل على تعليم جيد إما يحصلون على أجور زهيدة مقابل الوظائف التى لا تتناسب مع مستوى المؤهل العالى الذى حصلوا عليه ، والتى ربما يطردون منها بالفصل ، أو يعانون من البطالة . فى كتابها الشهير بلمحاته الذكية « جيل يشعر بالوحدة » تشبه جانيت برناردى زملاءها من جيل

إكس بالجزئيات الشاردة التى تصطدم بالجزئيات الأخرى ، وتمضى لتفرق بين العزلة التى تعد حالة من الفراغ والوحدة التى ربما تكون الحياة فيها مليئة بالأنشطة ولكن ينقصها تكاتف الأسرة والأصدقاء ، فهى تقول إنها تعنى عدم الثقة بالناس وخوف من حلول الأذى بهم . إنها فن محاولة البقاء على قيد الحياة وهو يظهر على شكل استقلالية . وبالنسبة لعدد كبير من الناس فى العشرينات من أعمارهم اليوم ، فهى تمثل وجهة نظر مسيطرة على عقولهم . الوحدة .

إن خيبة الأمل فى المؤسسات والجوع للعلاقات كالشئ الوحيد الذى يعطى المعنى فى عالم ذى أرض قاحلة يرد بقوة فى أغنية « ستنج » التى تقول : « إذا فقدت إيمانى بك » فلو تفككت العلاقات الشخصية ، فإنك ضائع لا محالة .

* يمكنك أن تقول إنى فقدت إيمانى بالعلم والتقدم .

* ويمكنك أن تقول إنى فقدت إيمانى بالكنيسة المقدسة .

* ويمكن أن تقول إنى فقدت الإحساس بالاتجاه .

* يمكنك أن تقول كل هذا وما هو أردأ من ذلك ، ولكن :

- إذا فقدت إيمانى بك ... فلا يتبقى شئ لى لأفعله .

* قد يقول البعض إنى كنت إنساناً هالكاً فى عالم هالك .

- لم أر معجزة علمية . فلا يعنى هذا التحول من بركة إلى لعنة .

- لم أر أى حلول عسكرية . فلا يعنى هذا نهاية العالم .

ولكن دعنى أقول هذا أولاً : لو فقدت إيمانى بك ، فلا يتبقى لدى شئ لأفعله .

إنها فكرة قوية ، أليس كذلك ؟ عدم الثقة فى المؤسسات . الثقة فى صديق واحد خاص . والخوف أن الصديق قد يهجرك ، ويتركك دون أن تحصل على أى شئ سوى الوحدة .

- لن يصلح أن تلوم هذا الجيل على الهمجية الظاهرة . فقد تعرَّض للكثير من الأنانية من جهة الوالدين ، ولعبادة المقتنيات ، ولطلاق الوالدين ، ولفقدان العائلة كالركيزة الأساسية فى

الحياة . لقد تعرض لسوء المعاملة والإهمال وغياب التوجيه الأخلاقى والجوع الروحى ، كما أن عدداً كبيراً منهم كانوا خاضعين لنظام تعليمى سيئ . وكان يهددهم مستقبل اقتصادى كئيب قد سلب منهم الأمل الذى كان مفروضاً أن يكون من نصيبهم كشباب . إن عدداً قليلاً منهم متفائلون بشأن المستقبل وهم يشعرون أن الكبار غير راغبين فيهم ، وغير محبوبين منهم . وإذا لم يكن ذلك هو اختبار كل شاب ، فجميعهم يعرفون أن أغلبية أوساطهم تأتى من مثل هذه البيئة . فهل هناك عجب إذن أن عدداً كبيراً منهم يتوقف عن المسيرة ومواصلة الدراسة . فكل هذه الضغوط على التعليم ، ثم لا تكون هناك وظائف فى آخر المطاف ؟

وحتى العلاقات بين الشبان والشابات غير مرضية فى أحيان كثيرة . بالطبع فهى أهم شئ فى الحياة حيث أن الشباب من كلا الجنسين يبحثون عن الحب والاستقرار الذى لم يتمتعوا به فى بيوت والديهم . ولكن كما تقر بذلك كل الأغانى الشهيرة ، فمجتمعنا هو المجتمع الذى يشعر فيه كل واحد منا بأن له مطلق الحرية أن يترك الآخر عند أول نزوة . فالجنس ألعوبة نلهو بها فنستخدمه أو نتخلى عنه مثل الأكواب البلاستيك التى نستخدمها لمرة واحدة ثم نلقيها . ومن المؤلم حقاً أن يكون الجنس هو البداية ، حتى تعتاد عليه ، فتكف عن مجرد الأمل فى الحصول على الرقة والاستقرار اللذين تشتاق إليهما من أعماق قلبك . إن شباب اليوم لهم كل الحق أن يشكوا فى زملائهم والكبار على حد سواء .

أما عن الكنيسة ، فهى ليست جديرة بالاهتمام فى نظرهم . إن ٨٦٪ من الشباب لا تربطهم بالديانة أى رابطة من أى نوع . وأحد الأسباب لذلك أن جميع المنظمات موضع شك فى نظرهم على أى حال ، فهى السبب فى جو الفوضى الشاملة التى وُلد فيها الشباب . إن الركائز الأربع للمجتمع البورجوازى - أى الكنيسة والقانون والبرلمان والملكية - قد ثبت أنها لا يمكن الاعتماد عليها . إن فكرة المنظمات فكرة غريبة على من يريد أن ينجو بحياته ، على الشخص الذى تعلم أن يثق بنفسه فقط لأن الجميع قد تخلوا عنه .

ولكن خيبة الأمل لها جذور أعمق من ذلك . إن الكنيسة ينظر إليها باعتبارها تنتمى إلى الجيل السابق ، فآبائهم هم الكبار الذين لقى الشباب كثيراً من الإهانات على يدهم وتعلموا عدم

الثقة . ويبدو أن هناك قدراً كبيراً من الرياء فى الكنيسة ، فهناك معايير مزدوجة . فالمخالفات الجنسية والمالية شائعة حتى بين قادة الكنيسة . وأسوأ ما فى الأمر أن الديانة تبدو مملة لدرجة كبيرة . فالشباب يعتبر أن الطريق الأفضل هو الابتعاد عن الكنيسة . بالطبع إذا أردت أن تكون مرائياً فلتبق منضماً إلى الكنيسة ، ولكن إذا أردت أن تكون واقعياً ، وأن تكون على طبيعتك ، فلتبتعد عنها ، هكذا يقول الشباب .

نحو بداية الثقة

ماذا يجب على المسيحية الحقة أن تقوله إزاء هذا الجوع العميق للعلاقة ؟ ... هناك شئ جذبنى بشدة للمسيحية .

١ - إنها تخبرنى أولاً وقبل كل شئ « أنى محبوب » . لقد بذل يسوع جهوداً جبارة فى تعليمه ليوضح ذلك . إنه يقول لنا إن الله مثل امرأة تشعر بحزن عميق عندما تفقد أحد الدراهم ، فتكنس كل حجرات المنزل مراراً وتكراراً حتى تجد ذلك الدرهم - ثم تدعو الجيران لتفرح بذلك الدرهم . هكذا نحن أعزاء على قلب الله ! أو ينتقل المسيح من البيت إلى المزرعة ، فيقول إننا مثل خروف قد ضل على الجبال ، فلا يقول الراعى : « حسناً ، لا يزال عندى تسعة وتسعون خروفاً آخر . صحيح إنه لأمر سيئ ، أن أفقد واحداً » . كلا ، إنه يخرج إلى خارج مهما كان الطقس رديئاً ليفتش عن ذلك الخروف الضال حتى يجده . إنى أعلم أنه لا توجد ديانة أخرى فى العالم تصور الله بهذه الطريقة . وإنى أعتبر أن مثل هذا الإله جدير بالعبادة . بالطبع ، بالنسبة لك ، عليك أن تتخذ قرارك . ولكن بالنسبة لى فإنه لمن المثير والمذهل أن الإله الذى استهنت به وأهملته يأتى ليجدنى ويردنى إلى علاقة لم أكن أريدها - ولكنها أوجدت لكى أستمتع بها .

٢ - إن الإيمان المسيحى - يعلمنى شيئاً آخر . فالاغتراب الذى يشعر به كثيرون عن بيت والدينا يشبه اغتراباً مماثلاً عن الله ، بيتنا السماوى ومقرنا الأخير . ولهذا السبب فنحن نجد أنه من الصعوبة بمكان حتى أن نذكر اسمه . إن الصلة بيننا وبينه مفقودة . ولكن فى القلب من

الأخبار السارة أن الله قد ألقى بما يشبه الكوبرى العائم فوق نهر الانفصال واسم هذا الكوبرى هو يسوع . لأن المسيحية ليست بالحقيقة ديانة ، وليست أيدولوجية ، وليست مجموعة من المبادئ الأخلاقية . إنها علاقة مع شخص ، هو يسوع . إنه الشخص الذى قال ، وهو صادق فى قوله ، إنه يأتى بحياة الله إلى المجال البشرى ، ويظهر لنا ، فى إطار الحدود البشرية الحقيقية ، صورة لمن هو الله . هذا جانب من الموضوع . ولكن الجانب الآخر أكثر روعة ، إذا تحقق . لقد جاء ليؤدى مهمة ، أن نتخلص من ذلك الشئ اللعين « الذى يضايقنا ويفسد علاقاتنا مع بعضنا البعض ومعه . هل تعرف ما قاله جون وين عن ذلك الشئ اللعين ؟ :

يبدو أحياناً أن الوحدة هى ذلك الشئ اللعين .

العزلة يمكن أن تتضخم حتى لا نرى الشمس .

إنها تؤلمك كثيراً حتى أن الخوف بل

والقلق على الماضى والمستقبل ، يصبح خانقاً . لقد كسبت الجولة .

إنك تفكر : هذا هو الشئ اللعين ، إنه هنا .

ثم تأتيك فكرة : إنك تذهب لتنام أو لتتناول بعض الطعام .

تكتب خطاباً أو تعمل ، أو ترتب بعض الأشياء .

تنكمش مساحة الوحدة ، فأنت لست مستعبداً لها بالكلية .

ثم تأتيك فكرة أخرى . الشئ اللعين يسكن داخل نفسك ،

فالوحدة وحدها ليست الشئ اللعين ، ولا الألم ولا الراحة والهروب نحو الشعر ومعاقرة الخمر . والحنين لصديق .

ليس تجنباً للشئ اللعين ،

فالرف العالى الذى وضعت فيه الشئ اللعين ، آملاً فى الراحة

قد انكسر ، ثم سقط . إنه يتبعك حتى النهاية .

إن الله يهتم بنا لدرجة أنه جاء ليتعامل مع ذلك الشئ اللعين . ولم يكلفه ذلك أقل من الموت . إن ذلك يظهر أنه ذهب إلى جذور وحدتنا ، وقد تحملها نيابة عنا . وهذا هو السبب فى أنك تسمعه يصرخ على الصليب صرخة الوحدة المدوية ، مقتبساً كلمات داود فى المزامير «إلهى، إلهى ، لماذا تركتنى ؟ ». فإذا شعرت أنت وأنا بأن الله قد تركنا ، فإننا نستطيع أن نستريح على يقين أن الله نفسه يعرف ذلك الشعور من الداخل . إنك تستطيع أن تثق بإله مثل ذلك ، أليس كذلك - مهما تخلى عنك الآخرون كثيراً ؟

٣ - ولكن إنجيل المسيح يصل إلى ما هو أعمق من وحدتنا . إنه يقدم لنا هذا ، إنه لا يقدم لنا إلهاً بعيداً جداً عنا . ولا يقدم لنا نموذجاً لما يجب أن تكون عليه الحياة - على الرغم من أن ذلك شئ مفيد . ولكن إلهنا (الذى هو بعيد عنا وأتى ليكون مثالاً لنا) يعرض علينا أن يكون « رفيقنا الدائم » . ذلك فى مركز القلب من التلمذة للمسيح : صداقة مع الله الذى لن يتركنا أو يتخلى عنا . والعهد الجديد يؤكد لنا « إن الله لا يسكن فى هياكل مصنوعة بأيادى البشر . فجسدك هيكل للروح القدس » . إنه يخبرك بأن « تكتفى بما لديك ، لأنه قال « لا أهملك ولا أتركك » ، فلا عجب أن يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين فرحاً :

« حتى إننا نقول واثقين الرب معين لى فلا أخاف . ماذا يصنع بى إنسان »

(عب ١٣ : ٥ .. الخ)

إن ذلك مذهل ! الله الحى نفسه مستعد أن يأتى ليشاركنا حياتنا . يا له من صديق ! فلتفكر فى أحسن أصدقائك . هناك عيبان فى كل واحد فيهم ، أليس كذلك ؟ أولاً ، إنهم لا يمكن أن يكونوا معك طوال الوقت - أحياناً فقط . **ثانياً** ، وتشعر بشعور رهيب أنهم إذا عرفوا حقاً ما بداخلك ، فإنهم قد يتخلون عنك . نعم ، إن الرب يعرض عليك أن يكون الصديق الذى لن يتركك أو يهملك . إنه لن يتخلى عنك ولن ينساك . وزد على ذلك ، فبسبب ما عمله ليحمل عبء لعنة الخطية على الصليب ، فإنه يمكنك أن تثق به حقاً عندما يعد قائلاً إنه لا شئ فى كل

الخليقة يقدر أن يفصلك عن محبته . فهو الوحيد ، والوحيد فقط الذى يعرف أردأ ما فيك ويحبك بنفس القدر .

٤ - هناك طريقة أخرى يعرض بها الله في رحمته أن يواجه وحدتنا . فعندما نكف عن الهروب منه ونرجع معلنين ندمنا ، يحدث شيء عجيب لا رجعة فيه . يحدث تغيير جذرى فى الحالة . إن الله يتبنانا فى عائلته ، ونصبح أبناء وبناتاً له . إننا نصبح أبناء كيسوع المسيح . إنك لا تختار إخوتك وأخواتك ، وهذا ينطبق على الحياة العادية والحياة فى عائلة الله أيضاً . إنك تصبح عضواً فى هذه العائلة ! ولكن الشئ المذهل هو هذا . إن الله يسكب فى قلوبنا صلة جديدة بالآخرين فى نفس العائلة . بل إن القديس يوحنا يقول إن هذه المحبة الجديدة للإخوة المسيحيين من العلامات المؤكدة على أننا رجعنا لله وبدأنا بداية جديدة .

وأستطيع أن أؤكد ذلك من واقع اختبارى الشخصى . لقد صرت تابعاً ليسوع المسيح فى العشرينات - فى نفس الصيف مع شاب آخر كنت أعتبره كئيباً ، وكنت أكرهه من أعماق قلبى . ولكن عندما عدنا فى النصف الثانى من العام الدراسى ، وجدنا أن نفس الرابطة المسيحية تجمع قلبينا داخل المدرسة . كان كل منا ينظر إلى الآخر نظرة شك وارتياب كزوجين من الديكة المتقاتلة حتى اكتشفنا وبسرعة أن روحاً جديدة تعمل فينا : فقد أبعد الله العداء المتبادل بيننا وأحل محله رابطة جديدة لا يمكن أن تأتى إلا من الله . إنها بالتأكيد لم يكن مصدرها نحن . إن هذا التحول يكون معتاداً تماماً عندما يصبح الناس تابعين ليسوع . لقد رأيت أناساً كانوا محطمين تماماً وحصلوا على سعادة جديدة ، ومقدرة جديدة على الثقة بالآخرين ، واستعادة احترامهم لأنفسهم . إن المشاكل بالطبع لا تختفى ، ولكن الله يمحو بطريقة ما الآلام واليأس والإساءات وخطايا وفشل الماضى ويمنحنا صفحة جديدة تماماً .

وفى الحقيقة ، فإن هذا ما يفعله بالضبط . والعهد الجديد ملئ بأمثلة على ذلك . فهو يصف ذلك ليس كالغفران فقط بل يصفه « كالتبرير » : عفو قانونى كامل عن كل اتهامات وسوءات الماضى ، كيف يمكن حدوث ذلك ؟ لأن الله نفسه قد حمل عنا « اللعنة » ، مرة وإلى الأبد . فنقرأ عن ذلك فى كل أجزاء العهد الجديد .فى رسالة بولس إلى أهل رومية ، والأصحاحات الثمانية

الأولى منها : أو إذا أردت شيئاً موجزاً ، فلتبدأ بما جاء فى الرسالة إلى رومية الأصحاح الخامس عدد ١ أو أصحاح ٨ عدد ١ . على أى حال ، فما يفعله هذا الصفــح الشامل عن الماضى هو هذا . إنه يمكّننا أن نقترب من الله بثقة كالذين صفح الله بنفسه عنهم - « وإن كان الله معنا ، فمن علينا ؟ ... الله هو الذى يبرر ، وهو الذى يدين» (رو٨ : ٣١ و٣٣) . وهكذا بالتدريج ، والتدريج المؤلم ، تعود الثقة والمحبة والإيمان لتزهر من جديد ، ونجد أنفسنا فى صحبة أناس يقبلوننا ، وهم يفعلون ذلك لنفس السبب الذى لأجله قد قُبلوا هم أيضاً بلا شروط من الله ، وقدمت لهم المحبة بلا قيود وهى أدسم غذاء فى العالم .

بالطبع ، هناك الكثير من العثرات عند جماعة المسيحيين ، فالجميع يعلمون أن المسيحيين الجدد أشبه ما يكونون ببيوت فى حالة سيئة قد تم شراؤها حديثاً وتحتاج لعملية إصلاح شامل . إن النجار الأعظم قد بدأ العمل فيها ولكنه لم ينجز مهمته بعد . ولذا فلا تندهش إذ ألحق بك الفشل واليأس سواء فى نفسك أو بجماعة المسيحيين . إن المعركة بين ماكنا عليه وما أصبحنا فيه عندما سمحنا للمسيح أن يجرى عمله فينا ، طويلة . ولكنى أعتقد أنك سوف تجد كل الحقيقة فى أن العائلة المسيحية سوف تغمرك بحنان عجيب ، خاصة إذا انضممت لجماعة مسيحية صغيرة وتعلمت أن تضع ثقتك مرة أخرى .... فتتمتع بالإيمان ... والرجاء ... والمحبة . إنك تعرف أن الله ليس مهتماً فقط بعودتك الشخصية . إنه يريد أن يستبدل بالوحدة مجتمعاً جديداً وعائلة مسيحية ، أى الكنيسة - سمها ما تشاء . إنها مجتمع القيامة لأنها الشركة مع يسوع المقام من الأموات .

إن ذلك يتطلب منك الثقة - ولكن تلك الثقة يجب أن تكون مبنية على أساس متين .

الفصل الرابع
قصة المسيحية

إعادة اكتشاف القصة

من المدهش أنه فى هذا العصر الشديد التعقيد ، الذى تسيطر عليه التكنولوجيا يعود الناس بشغف إلى القصة . إن القصة هى شكل من أشكال البرامج التليفزيونية الأكثر شيوعاً وشهرة . فالقصة هى السبب فى الإقبال على شراء الجريدة المحلية .وتخصص الجرائد الكبرى الجادة مثل جريدة الصنداى تايمز صفحة بها قصص مصورة مثل « الشمس وأخبار العالم » ، وقصص عن أناس حقيقيين ، وبطولاتهم وفضائحهم ومصائرهم . لماذا تعد قصصاً مثل (نارنيا) جذابة دائماً لآلاف الناس الذين لا يقرأون أبداً الكتابات اللاهوتية أو الأدبية لـ . ك . س لويس ؟ لأنها قصص ، والقصة هى واحدة من أهم الطرق الجذابة فى كل زمان ، وهى من الوسائل التى لا تُنسى لمحاولة توصيل أى شئ .

ولكن ليس ذلك هو السبب الوحيد لاكتسابها مثل هذه الأهمية حالياً . فنحن نعيش فى مفترق الطرق بالنسبة للتاريخ . وقد ظل هذا العالم المتطور لمدة قرنين ونصف من الزمان خاضعاً لأفكار التنوير . فالعقل هو الحاكم والمسيطر . وهذا العالم هو كل شئ . وكان العلم هو الطريق للوصول إلى أسراره . وكانت التكنولوجيا هى الطريق للحصول على فوائده . وكانت الحقيقة قاصرة على ما يمكن أن يقاس أو يوزن . وكانت المناقشة تدور على أساس المنطق وحده . وكان يُنظر للأخلاق نظرة شاملة : ليست مبنية على إرادة إلهية مفترضة بل على حسابات لما يخدم أكبر عدد من الأفراد . ولم يكن هناك شئ مقدس . كان الشك العقلى هو الطريق لتطور المعرفة ، ولم يكن لله وجود فى معترك الحياة ولكنه قد أبعد حيث لا يسبب أى ضرر ولا يمارس أى سلطة .

كل ذلك يتغير الآن . فيوجد اليوم - ما ندعـــوه مجتمع ما بعد الحداثة - تغيير كبير فى الاتجاه .. فنحن لم نعد مقتنعين أن العلم هو مقياس كل تقدم ، فخلال فترة حياتنا رأينا الأهوال من فرط الرعب . يكتب بريان ابليارد فى جريدة الـ اندبندنت مبرزاً هذه العـــبارة « لم يعد العلم ، فى ذهن الجمهور ، المرشد الفاضل إلى مستقبل أفضل ، ولكنه نوع غامض من المعرفة تقدم لنا كثيراً من التهديدات كما تقدم الراحة » . إن العلم بالطبع ، على الحياد . فما يفعله البشر باكتشافاته يمكن أن يكون مرعباً . ولم نعد نصدق منطق الجنس البشرى ، فنحن نتخذ قراراتنا المصيرية فى الحياة على أساس مخالف للمنطق الهادئ ! فقد أظهر كل من يونج وفرويد أن العقل بعيد عن السيطرة . والفلسفة والتاريخ ليس لهما الكلمة العليا فى العديد من الأوساط هذه الأيام ، إنهما جزء من أساس الهيكل القديم الذى مارست فيه الاستناره سيادتها . لماذا سمح للجانب الأيسر من المخ بتولى زمام القيادة لمدة طويلة ؟ لقـــد حان الوقت للجانب الأيمن كى يُسمع . وهكذا فالحقيقة تستسلم للنسبية . والعقائد الجامدة تفسح المكان للتعددية . والعقلانية ينظر إليها باعتبارها عبادة لوثن جامد . والخضوع للشك يسلب الحياة من اللون والمعنى . ولماذا نستبعد ما فوق الطبيعة ؟ وهكذا رأينا ازدهار ونمو اللامعقول ، كالأفكار الوجودية والقوى السحرية الغامضة - بنوع خاص ، ولكن ليس تماماً فى تفكير العصريين الجدد . فهناك جوع جديد للروحانية ، اهتمام جديد بالحفاظ على البيئة من الدمار بسبب الجشع الرأسمالى ، وانفتاح جديد على كل الأشياء التى يستحيل تفسيرها وفقاً للنواميس الطبيعية ، إنه إحساس جديد بالأسرار الغامضة ، واحتفال جديد بالحياة ، وإطلالة أخلاقية وروحية مستقلة النزعة . فكثيرون يروننا كأجزاء من وحدة جامعة ، مصدرها الله فى الأساس .

توجد جوانب مظلمة لهذا السيناريو الجديد ، بالطبع ، وهناك سباق محموم بشأنه . ولكن ليس من يشك فى حقيقة أننا نعيش فى ظل تغيير ثقافى شامل ، فجميع الأهداف متحركة هذه الأيام . وفى وسط هذه الإثارة ، حتى وإن كانت مربكة ، فالمشهد الذى أمامنا يقول إننا نعيد اكتشاف القصة . إنها تحمل الحقيقة . إنها تتحدث عن كل ما يتعلق بحالتنا البشرية .

القصة المسيحية

إن المسيحي سوف لا يعترض على ترك كل أنواع الصراع العقلاني والعودة إلى الوسط الذى وقعت فيه أول كلمات للإنجيل على أذن بشر . فنحن لدينا قصة أيضاً لنرويها ، وربما يلتمس لنا العذر لاعتقادنا أنها أعجب قصة فى العالم . ونحن لا تضايقنا منافسة القصص الأخرى أو التحديات على أرضية الحقيقة . نحن نعلم أن هذه القصة تأخذ بمجامع قلوب آلاف المقتنعين الجدد للإيمان المسيحى فى كل مكان فى العالم اليوم ، فى الدول المتقدمة والنامية على حد سواء . إنها تنتشر فى البلاد الحارة الواقعة جنوب إقليم الصحراء الأفريقية وفى الصحارى المتجمدة فى المناطق القطبية فى الشمال .وهى قصة تجذب الرجال والنساء والأطفال على حد سواء كما يجب أن تفعل القصة الجيدة حقاً . إنها تجذب الناس من جميع العقائد ومن ليس لهم عقائد بالمرة . وكأحسن القصص ، إنها تمكّن السامع أن يتعرف عليها ويشعر أن القصة هى قصته . والقصة تجرى هكذا :

فى البدء خلق الله السموات والأرض . هذه هى البداية - فكل القصص الجيدة تحتاج لبداية واضحة . وهذه القصة واضحة جداً . وأنت لا يمكنك أن تبحث عن بداية لله ، فهو المصدر النهائى لكل ما هو موجود . إنه مصدر لا تصل إليه أنفسنا أو بيئتنا ، إنه إله شخصى ، ومع ذلك فهو يفوق كل النواحي الشخصية . هذا الإله هو نبع الحياة . هذا الإله هو الحافظ للنواميس الطبيعية . إنه الحاكم الأخلاقى للعالم وسوف يتولى دينونته . هذا الإله هو المحبة . وطبيعته فى منتهى السخاء والكرم والتضحية بالنفس وقصتنا هى قصة معاملات الله مع الجنس البشرى .

هناك **عقبتان** رئيسيتان لحصولنا على قدر كبير من المعلومات عنه . **العقبة الأولى** هى بشريتنا المحدودة . إننا صغار ومحدودو الفهم والفكر . فكيف يتوقع منا أن نخترق حجب ذلك المصدر المجهول الحافظ للكون والهدف الذى يتجه إليه الكون ؟ **والعقبة الثانية** أكثر وعورة ، فنحن نتقوقع حول الذات ، وحياتنا يلفُّها غموض الكبرياء ، والجشع ، والشهوة ، والعدوان ، والحقد واللامبالاة تجاه آلام الآخرين وما شابه ذلك . والله لا يمكنه أن يُسَر بما يرى . هل أنت مسرور بما تراه حولك ، فى المجتمع ، وبين أصدقائك ، وبين أفراد عائلتك وفى داخل نفسك ؟

فإن كنت كذلك - فإني أستأذنك في أن أشك في كونك حيادياً في حكمك هذا . التقط الجريدة أو شاهد برنامجاً إخبارياً ، وسرعان ما تقتنع بالحقيقة الجوهرية التي تدعمها القصة : البشرية بها عيب خطير يائس ، إنها مريضة مرضاً خطيراً .

إننا لا نستطيع أن نعرف الله لأنه فوق إدراك عقولنا الصغيرة . ولا يمكننا أن نصل إليه لأن طهارته تفضح حالتنا البشرية الساقطة . إن وصولنا إليه شئ مستبعد ، إلا أن القصة تخبرنا أن الله قرر الاقتراب إلينا . فعلى مر عصور التاريخ يمد يده للبشرية . لقد دعا إبراهيم قبل الميلاد بألفي عام لكي يأتي ويتبعه في ثقة وطاعة . وفعل إبراهيم كذلك ، وأصبح رائداً للمؤمنين منذ ذلك الحين . وقد جاءت منه الأمة اليهودية ، وتعلمت تلك الأمة بالتدريج قداسة الله ، وعدالته ومحبته ، وصفحه وقد دعاهم إليه . وتعلموا بالتدريج أن يمجدوا الإله الواحد الحقيقي ضد كل تعدد الآلهة ، الديانة المنتشرة حولهم . وتعلموا أن يثقوا فيه في الكارثة والسبي . ولكنه ظل إلى حد كبير ذلك الإله المجهول . لقد كانوا يدركون تماماً حالة « الوحدة » التي تحدثنا عنها في الفصل السابق .

وإليك ما يدعوه لاس توماس « المجئ » ، فهو يتصور الله ممسكاً في يده بكرة أرضية مصغرة ، وهو يلفت نظر ابنه إليها . كان الألم والعذاب واضحين تماماً عليها . وفوق ربوة عالية جرداء كانت هناك شجرة بلا أوراق تفرد أذرعتها ، وكان عدد كبير من البشر ينظرون إليها في رجاء . أخذ الابن يرقبهم وقال « دعني أذهب إلى هناك » .

هذا هو ما حدث . فبدون أن يفقد الله سيطرته على الكون ، جاء الله في شخص يسوع ليشاركنا موقفنا . إنه لم يكن متنكراً كإنسان : لقد كان إنساناً بالفعل . وكان هو الله أيضاً . لم يكن ظاهراً لنا بكل لاهوته (كان يتحدث دائماً عن أبيه السماوي كمن هو أعظم منه) بل بكل ما يمكن أن نستوعبه من اللاهوت . كان هو الله على قدر ما يمكن لجسد بشرى من لحم ودم أن يستوعب .

قوة القصة :

إن قصة يسوع أجمل قصة فى كل العالم . فلا عجب إن تأثر بها ثلث الجنس البشرى . ولا عجب أنه لا تضاهيها أى قصة أخرى ، دع عنك أن تحجبها . خذ إنجيل لوقا واقرأه كله فى جلسة واحدة إذا أردت أن تستوعب قوة وجمال هذه القصة . إن تعاليم يسوع ، وأعمال المحبة ، ومعجزات شفائه ومعجزاته ومطالبه تنبع كلها من حقيقة نفسه : إنسان كما يجب أن يكون وإله كما هو . وهذا ما يجعله فريداً تماماً . وهذا هو السبب فى أن المسيحيين لا يمكن أن يوافقوا على أن توضع هذه القصة على نفس الرف مع القصص الأخرى . فالقصص الأخرى بها درجات متباينة من الحقيقة فيها ، وإلا ما اجتذبت إليها أى عدد من القراء ، ولكن قصصهم تحتوى على نداء غامض وإعلان غير واضح . وهذه القصة لها قوة وسطوع الشمس فى وضح النهار ، وعندما تروى القصة الكاملة ، فإن ما هو جزئى أو تمهيدى يتراجع . فمن الآن وصاعداً ، لسنا مضطرين للتعامل مع إله مجهول . « ففيه (أى المسيح) يحل كل ملء اللاهوت جسدياً » (كو ٢ : ٩) .

لماذا يهتم يسوع ، المشارك لطبيعة الله والساكن معه ، وينزل إلينا من علياء سماه ؟ ولماذا يثبت وجهه شطر ذلك الصليب المرعب الذى أصبح رمزاً عالمياً للخدمة المضحية الباذلة والتضحية بالذات منذ ذلك التاريخ ؟ إنه لم يذهب إلى هناك ليقدم مثالاً عظيماً على التضحية بالنفس ، مع أن ذلك كان جزءاً مما عمله بالفعل ، وذلك الجزء موضع سخرية مجتمعنا الأنانى الباحث عن اللذة . إنه لم يذهب إلى الصليب لمجرد أن يرينا مقدار محبة الله لنا مع أن ما عمله أظهر ذلك بوضوح تام . إنه ذهب إلى هناك ليرجعنا إلى الله . لقد ذهب إلى هناك ليبنى جسراً فوق المياه المضطربة لاغترابنا وأنانيتنا . لقد جاء ليفعل ما كانت تفعله البلدوزرات - تفتح الطرق بين شمال وجنوب أيرلندا بعد أن عاد الناس لوعيهم وألقوا بأسلحتهم جانباً . لقد جاء لينشئ طريقاً للعودة إلى الله من العداوات التى سادت وقتاً طويلاً من الزمن . وقد عمل ذلك بدفع ثمن باهظ ، وبطريقة مدهشة تماماً . والفكرة هى هذه، أن شرورنا قد فصلتنا عن الله ، لقد صنعت حاجزاً لا يمكن اختراقه بين الطرفين . إن ما فعله يسوع على الصليب أنه كسر ذلك الحاجز . لقد أنشأ طريقاً للعودة إلى الله ليرجع بواسطته الذين يعترفون بأنهم قد سلكوا الطريق

الخاطئ وأنهم مستعدون لقبول استعادة أوضاعهم كهبة مجانية من قلب إله كريم . وقد نتساءل نحن : لماذا يذهب إلى هذه الأبعاد السحيقة ؟ الإجابة البسيطة لأن الغفران ليس زهيداً . إن عثراتنا وعصياننا من الأشياء التى تسئ لله . إنها تغضب قداسته . ومادام هو الحكم الأخلاقى للعالم فإنه لا يمكن أن يتجاهلها . ولكنه إذا أدان هذه الأشياء ، كما يحق له ذلك ، فلا رجاء لأى واحد فينا . ولذا فقد صار كواحد منا ، وكبديل عنا فقد تحمل الحكم الصادر ضدنا وتحمل أن يحجب الآب وجهه عنه ، إنه يهتم بنا إلى هذا الحد . لا توجد قصة فى العالم كله يمكن مقارنتها بهذه القصة .

بقايا من شكوك :

ولكن تبقى بعض الشكوك . لماذا يجب علينا أن نمـوت حتى نستعيد العلاقات بيننا وبين الله ؟ إن الإجابة ترجع بنا تقريباً للبداية الأولى - عندما عصى الإنسان أولاً الله . فى القصة التى لا نظير لها عن جنة عدن ، قد تتذكر أن الله كان قد حذَّر بأن الموت سوف يعقب العصيان لا محالة : فإذا اختار الجنس البشرى أن يرفض الله ، فلن يستطيع الله سوى أن يوافق على اختيارهم ، ألم يمنحهم الحرية ؟ إن الشيطان قد أقنعهم أن هذا التحذير يمكن التغاضى عنه دون حدوث ما يؤذيهم . أكل آدم وحواء من الشجرة المنهى عنها ، وكما رأينا فى فصل سابق ، لقد ذبلا وماتا روحياً . لقد ظلا يمارسان حياتهما عقلياً وجسدياً واجتماعياً طوال مدة بقائهما على الأرض ، ولكن الموت الروحى الذى سبق أن ساد على حياتهما اكتمل بالموت الجسدى . هذه هى الحياة الروحية التى عمل يسوع على استعادتها لعالم ساقط . ولذا فهو لم يظهر فقط محبته وتضامنه معنا بمشاركتنا أقسى أنواع الموت الجسدى الأليم ، ولكنه سمح لنفسه أن يعانى من الهجر من الله واللعنة اللتان كانت أفعالنا الشريرة تتطلبهما . لقد مات موتنا الروحى - حتى يستطيع بعدالة تامة أن يقدم لنا حياته الروحية . لقد أخذ مكاننا فى قفص الاتهام فوق الجلجثة ، حتى نستطيع نحن أن نشاركه مكانه ، وننال القبول التام من الله الآب . ولهذا كان موته فى غاية الأهمية . فقد أعاد العلاقات مع الله بامتصاص عداوتنا وذنبنا اللذان تآمرا

للقضاء علينا . إنه يحبنا إلى هذا الحد !

هناك شك آخر ، برز على شكل سؤال بمجرد رواية القصة . لماذا كان يجب أن يموت على صليب بالذات ؟ هل لذلك معنى خاص ؟ نعم ، فالقصة واضحة . فأنت ترى أن العهد القديم الذى كان مكتوباً على قلب كل يهودى ، ينطق بكل جلاء أن كل من يتعرَّض للموت على خشبة يجب أن يكون تحت لعنة من الله ، كل ذلك موجود فى سفر التثنية (٢١ : ٢٣) . ولذا فقد كان واضحاً تماماً للجميع ، للعام والخاص أنه عندما عُلق المسيح ليموت على صليب ، فإنه كان يتحمل اللعنة ، عقاب الله العادل . كيف يمكن أن يكون هذا ؟ إن الجميع يعرفون أنه عاش حياة بارزة لا نظير لها . ولذا فالإجابة اتضحت للجميع بسرعة ، وهذا ما أعطى للقصة مثل هذه الجاذبية الشاملة . إنه مات بالفعل تحت لعنة الله . ولكن اللعنة التى تحملها كانت من نصيبنا . وكان القديس بولس واضحاً كل الوضوح حين أعاد سرد القصة . فهو يقول إن كل من يعتمدون على أعمالهم الصالحة لتقرِّبهم إلى الله يقعون تحت لعنة دينونة الله العادلة . ألا يوضح لنا العهد القديم أن كل من لا يطيع كل وصايا الله فى ناموس موسى يستحق تلك اللعنة ؟ ومن منا يمكن أن يدَّعى أنه بلا لوم أمام الله القدوس ؟ ثم يصيح بولس صيحة الانتصار المدوية هذه فيقول : « المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا لأنه مكتوب ملعون كل من عُلِّق على خشبة » (غل ٣ : ١٣) . ولهذا السبب فإن طريقة موته ذات أهمية . إنها تبين أنه قد واجه وتحمل شخصياً ذنبنا الذى كان يستحق دينونة الله . ويمكننا الآن أن نثق تماماً أن الله سوف يرحب بنا ، يا لها من محبة يصعب استيعابها عقلياً ! .

الجزء الثاني من القصة :

ولكن ذلك نصف القصة فقط ، فهى تتواصل لتخبرنا كيف أن الموت قد ثبت أنه عاجز عن أن يمسك بيسوع ليبقى فى باطن الأرض . إن هذا يبدو غير معقول بالنسبة لنا الذين لم نشهد أبداً حياة كاملة . فنحن نعرف فقط البشر الذين تمكن الشر منهم . وجميعنا بلا استثناء أمثلة ناقصة تدل على ما تعنيه أن تكون إنساناً . ولذا فعندما يموت أصدقاؤنا فهذا كل ما فى الأمر . فالموت

هو النهاية الرهيبة لكل شئ . ولكن ليس لدينا فكرة عما إذا كان نفس الشئ يحدث لمن كان كاملاً . ولا يوجد سوى شخص واحد بهذا الوصف في تاريخ العالم . وجميع المصادر تقول إنه قام ثانية من القبر الذى دُفن فيه . والمؤرخون القدامى يعتبرون أن قيامة يسوع فى فجر أحد القيامة من أكثر الحقائق المشهود لها فى التاريخ . لقد كانت بداية المسيحية : فالمسيحية استطاعت أن تقوم لأن يسوع قام من الأموات . لقد أعلن المسيحيون وقتها ، ومازالوا يعلنون منذ ذلك الحين أنه حى ويمكن أن يلقاه ويعرفه كل من كان على استعداد أن يتمم الشروط . إنى لا أطلب منك الآن أن تصدق هذا الجزء من القصة . إنى أؤكد فقط أن القيامة تقع بمثابة القلب من المسيحية . المسيحيون يؤمنون أن « يسوع حى » .

دلالات القصة :

إذا آمنا بالقصة ، فإن ذلك يحدث تغييراً كبيراً فى حياتنا ونظرتنا للحياة . إنها تقودنا لنحترم هذا العالم كهبة من الله . إنها تساعدنا أن نفهم معنى كل من الصلاح والشر فى المجتمع وفى أنفسنا . إنها تعطينا تقديراً جديداً ليسوع وتعد نفوسنا لنسجد له فى خشوع . إنها تفرح قلوبنا مع إعطائنا إحساس بالعفو واستعادة المركز المفقود - فالذنب قد رُفع والاغتراب عن الله قد انتهى . إنها تعطينا إطلالة جديدة على الموت . فقد تم كسر شوكة الموت . إن يسوع أخبر تابعيه أنهم سوف يلحقوق به بعد الموت . وعندما أيّد هذه الكلمات بالقيامة حقاً من القبر ، فهل من المستغرب أن يقتنعوا بذلك ؟ إن الإيمان بحياة الدهر الآتى بدأ يقوى المسيحيين لمواجهة الموت دون خوف ، وفى نفس الوقت يمسح دموع المسيحيين الحزانى .

ولكن هناك دلالات أخرى فى هذه القصة . إنها ترينا أن المسيحية الحقة ليست مجرد أمنية من غير المحتمل تحقيقها عندما نموت . فالأمنية تبدأ فى التحقيق هنا على الأرض . لأنه إذا كان الله قد جاء إلى هذا العالم لأجلنا ، فلابد أنها مكان متميز . إذا كانت القصة حقيقية ، فهى تعنى أن تابعى يسوع يجب أن يندمجوا فى المجتمع المعاصر ، ويلقوا بكل ثقلهم فيه ليجعلوا منه مكاناً أفضل . إن التابعين الحقيقيين ليسوع لا يفقدون الأمل فى هذا العالم نهائياً منتظرين

العالم الآخر . إنهم يحاولون حل مشكلات الأميين والمرضى والفقراء والمضطربين عقلياً . إنك تجدهم فى العمل وفى البرلمان وفى الوظائف التى ترعى مصالح الجماهير ، وفى كل ميدان من ميادين الحياة حيث يمكنهم أن يحدثوا تغييراً فى هذا العالم . إن الدلالات الاجتماعية للقصة لها أبعادها المؤثرة . إن تابعى يسوع يحاولون ، بقوته ، أن يكونوا رائحة المسيح الذكية فى الحياة فى علاقاتهم مع الآخرين ، فى الخدمة والتطلعات . إنهم يرون أنفسهم كرواد لملكوت الله ، الباكورة الأولى لثمر المستقبل . ولذا فبالرغم من كل ضعفات الكنيسة ، يوجد رجاء قوى فى المسيحية الحقيقية ، رجاء الإعلان عن محبة يسوع وبذله لذاته هنا ، ورجاء الوجود معه فى العالم الآخر . ليس هناك أنانية أو فردية ، أو أفق ضيق أو محبة للعالم والتعلق به فى المسيحية . إنها استجابة تامة للإله العظيم الذى بذل نفسه تماماً بدافع المحبة لأجلنا ، عندما تدرك ذلك جيداً فسوف يحدث تغييراً كبيراً .

ذلك هو الإطار العام للقصة ودلالاتها . إنها لم تنته بعد لأن كل واحد فينا لديه الفرصة ليشترك فيها . فعلى كل واحد أن يقرر إن كان يؤمن بها أم لا . إنها نظرة مختلفة تماماً للحياة . إنها تؤثر على كل شئ نفعله – تماماً كما لو كنت قضيت حياتك كلها تلبس النظارات الشمسية ثم خلعتها فجأة ، أو كنت لا تمتلك سوى تليفزيون أبيض وأسود ثم حصلت على تليفزيون ملون فجأة . إنها تغير كل شئ . إن القصة لها قوة إحداث التغيير . ولذا فنحن بحاجة أن نكون أشد حرصاً فى تقييم القصة . فهى يمكن أن تكون صحيحة . فإن كان الأمر كذلك ، فهى ذات قيمة لا تقدَّر ولا يمكن مقارنتها بأى قيمة أخرى . وقد لا تكون صحيحة ، وفى هذه الحالة فلن نرفضها فقط بل نقف بكل قوانا ضدها . علينا أن نختار .

وهذا الاختيار يجب أن يتحدد بالدليل . هل القصة متماسكة ؟ هل يمكن تصديقها ؟ إن هذا سؤال فى غاية الأهمية لأن القصة تعلن أنها قصة تاريخية ، فهى قصة يسوع المسيح . إنها قصة الأخبار السارة عن شخص فريد تاريخى وُلد قبل كتابة الأناجيل بأقل من جيل واحد وحكم عليه بالموت علناً تحت حكم الوالى الرومانى لليهودية ، بيلاطس البنطى . لقد أعلن صاحب القصة أنه يجسِّد الإعلان الإلهى لجنسنا و لينقذنا من عواقب حماقتنا وعصياننا . وقد أيد هذا القول

بتعليمه الذى لا مثيل له ، وحياته الكاملة ، وقيامته التى يشهد الجميع بصحتها .

لا يوجد فى كل ديانات العالم أى شئ يمكن مقارنته من قريب أو بعيد بهذه القصة . إن لها فى الواقع ، ملامح مشتركة مع عبادة الطبيعة الكامنة وراء العديد من الديانات الشرقية ، وهى مبنية أيضاً على دورة السنة التى تتراوح بين الميلاد والنضج ، والموت والقيامة فى فصولها الأربعة . والشرق القديم به تغييرات عديدة على موضوع الموت والقيامة فى عقائد ديونسيوس وأتيس وإيزيس وسيبيل ومثراس . ولكن بالنسبة لهذه القصة هناك فرق جوهرى . إنها مرتبطة تماماً بشخص تاريخى ، شخص متميز ، قد عرفته أعداد كبيرة من القراء شخصياً . إنها قصة يسوع التاريخى . أزل يسوع من وسط القصة فلا يتبقى شئ فيها . إن المُثل العليا يمكن أن توجد فى أى قصة أخرى . والطقوس موجودة فى كل مكان فى العالم . ولكن إذا أثبت أن يسوع ليس شخصية تاريخية فإن القصة كلها تنهار . ولابد من حدوث ذلك . لأن القصة تقول إن كل هذه الأشياء قد حدثت بالفعل ، أى أن الله جاء إلينا فى جسد يسوع وأنه مات لأجلنا على ذلك الصليب ، وأنه حى ومقام من الأموات وأنه وثيق الصلة بالأفراد والمجتمعات اليوم . وأن ذلك ليس شيئاً يتعلق بأسطورة أو أيدولوجية ، بل بالتاريخ . إلى أى مدى يعتبر هذا القول صحيحاً ؟ سوف نتأمل فى ذلك فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

فضائيات

كان لفليني ، المخرج الإيطالى الشهير والذى مات مؤخراً ، وجهة نظر يائسة عن الحياة . فقد كتب قائلاً : « مثل عدد كبير من البشر ، ليست لى عقيدة دينية . فأنا مجرد شخص يجلس فى قارب صغير ، تتقاذفه الأمواج . فأنا لا أقوم بعمل شئ ما سوى دبلجة الأفلام أو القيام بالمونتاج أو التصوير ، أو النظر إلى الحياة محاولاً أن أجعل الآخرين يرون أننا اليوم نقف عراة دون أن نمتلك ما ندافع به عن أنفسنا أكثر من أى عصر آخر فى التاريخ . إنى لا أعرف ما أنتظره ، ربما يأتى سكان المريخ لينقذونا » .

إنى معجب بشدة بشجاعة ملحد كفلينى . إنه بلا رجاء ولكنه برغم ذلك مازال يعمل على أمل ، دون وجود شئ أفضل ليعتنى به سوى تدخُل متوهَّم من كوكب يعرف تماماً أنه بلا حياة . هناك عدد كبير من الكتابات التى تتحدث عن غزو الأرض من قبل هواة الخيال العلمى هذه الأيام، والتى تجد عدداً هائلاً من الأتباع . فلتفكر فى كيفية السيطرة على خيال عامة الشعب من قبل أفلام حرب النجوم ، و«مقابلات عن قرب » وأفلام غزو الفضاء والرحلات إلى الكواكب الأخرى . إن البرنامج الذى يدر أكبر الدخول فى القناة الثانية لإذاعة الـ B B C هو « ملفات المجهول» ، وهى دراما تتحدث عن السفن المجهولة القادمة من الفضاء الخارجى والقوى الغامضة ، ويتزايد عدد كتب الخيال العلمى فوق رفوف المكتبات . إنه خيال غير ضار ، بلا شك ، لكنه يكشف عن شئ ذى مغزى هام . إن عدداً كبيراً من المفكرين من أمثال فلينى يشعرون باليأس بسبب الفوضى التى غمرنا بها العالم ، ويشتاقون لمنقذ يأتيهم من الخارج ، من خارج الأرض . ولكننا نعلم فى أعماق قلوبنا أنه أمل يائس .

ومن المدهش حقاً ، أن الإيمان المسيحى كله يتعلق بما هو خارج الأرض . فيسوع المسيح يعلن أنه هكذا : منقذ لنا من خارج ذواتنا يمكنه أن يحدث تغييراً حقيقياً في حياتنا ومجتمعنا وعالمنا لو سمحنا له أن يفعل ذلك . لقد رأينا جوهر القصة فى الفصل الأخير . والسؤال هو : هل يمكنها أن تصمد للفحص والنقد ؟ أم أن الرجاء المسيحى سوف يثبت عند التقييم الجاد أنه مجرد وهم مثل القادمين من المريخ الذين تخيلهم فليني ؟

لحسن الحظ ، أمامنا قدر جيد من الأدلة التى تمكننا من الإجابة على هذا السؤال . وإنى أقترح التحقق من السؤال بوضعه تحت عناوين ثلاثة . هل يمكن أن نثق فى الكتب المقدسة ؟ وهل يمكن أن نثق في المصادر ؟ وهل يمكن أن نثق فى القصة ؟ .

هل يمكن أن نثق في الكتب المقدسة ؟

كلما جاءت الفرصة لأتحدث مع بعض الطلبة أصطدم بفكرة شائعة ولكنها خاطئة . فقد أخبرهم أحدهم أن كتب العهد الجديد متأخرة ، ولذلك فلا يمكن الاعتماد عليها . وأنه قد تم العبث بها على مر الأعوام . ولهذه الفكرة مصدر طريف ، ففى عام ١٨٤٢ حُرم لاهوتى ألمانى يدعى برونو باور (Bruno Bauer) من كرسيه في الجامعة بسبب آرائه المتطرفة . وقد أثرت هذه الفكرة كثيراً على كارل ماركس ، الذى ظن أن المؤسسة الدينية قد خدعته فهى لم تجرؤ على السماح بفحص أساس الإيمان المهتز فحصاً محايداً . وكانت وجهة نظر « باور » أن يسوع لم يعش حقاً ، بل كان مجرد شخصية خيالية من بنات أفكار مرقس البشير . إن ماركس لم يفحص أبداً المصادر المسيحية بنفسه . بل أنه فى الواقع كان مغمض العينين بإرادته تجاه الدليل التاريخى . بدلاً من ذلك فقد ابتلع طعم هذه النظرية السخيفة وغير المعقولة التى قدمها « باور » دون تحليل ، ونادى بأن المسيحية قد نشأت فى القرن الثانى للميلاد كثورة قامت بها الجماهير ، وكان يسوع شخصية أسطورية ، وأنه لم يحاول أحد أن يزعم أنه شخص تاريخى حتى الجزء الأخير من القرن الثانى عندما كتب العهد الجديد – وأنه مجرد سرد تاريخى عديم القيمة . هذه الفكرة لباور ، والتى عدلّها ماركس ، قد تم تفنيدها تفنيداً قاطعاً عدة مرات . ولكن لها

تأثير كبير على كتابات ماركس ومن ساروا على دربه من الرفاق الشيوعيين . وإنه لمن سخرية القدر (وإدانة للبروتستانتية الحرة) أن تكون التقلبات الفكرية لأحد اللاهوتيين الذى لا يحسن انتقاء ألفاظه ورد الفعل العنيف الذى ووجه به من قبل المستقيمى الرأى قد وضع الأساس الروحى لأقوى حكم إلحادى عرفه العالم .

إن الحقيقة مختلفة تماماً . فنحن فى وضع أفضل لتقييم مصداقية التراث المدون فى المخطوطات في حالة العهد الجديد أكثر من أى كتاب قديم آخر . فلم تصل إلينا أى وثيقة قديمة بمثل هذه الثروة فى المخطوطات كالأناجيل . فلدينا نسخ منها ترجع لما يقل عن قرن بعد كتابتها في الجزء الأخير من القرن الأول للميلاد . وتعد هذه كمية كبيرة مقارنة « بالكتّاب القدامى لتلك الفترة ». فالفجوة على سبيل المثال ،بين ما كتبه تاكتيتوس (حوالى ٥٠ سنة بعد البشيرين) وأقدم مخطوطة بقيت من كتاباته تبلغ حوالى ٨٠٠ سنة . وبالنسبة « لليفى » أحد المؤرخين المعاصرين تقريباً للبشيرين ، تصل الفجوة إلى ١١٠٠ سنة . وفى مقارنة صارخة بين المخطوطتين أو الثلاث مخطوطات التى لدينا للنصوص التى كتبها هذان الكاتبان الدينيويان ، لدينا مقابل ذلك حرفياً مئات المخطوطات للعهد الجديد ، وجميعها مكتوبة بعدة لغات وهى من كل أنحاء العالم القديم . وهى تعطينا النصوص الواردة فى العهد الجديد فى إجماع مذهل (تماماً كما تؤكد لفائف إشعياء الموجودة فى قمران بدقة النص الأصلى لأقدم مخطوطة لدينا لإشعياء ، على الرغم من أنها وُجدت فى تاريخ لاحق بما يزيد على ألف سنة) . بالطبع ، هناك العديد من القراءات المختلفة في هذه المجموعة الكبيرة من المخطوطات ، والمنسوخة جميعها بمجهود شاق بخط اليد . ولكن جميع الذين درسوا الموضوع يتفقون جميعهم على هاتين النقطتين المحوريتين .

أولاً ، ليس هناك تعليم واحد في العهد الجديد يعتمد على قراءة مختلف عليها .

ثانياً ، نصوص العهد الجديد مؤكدة لدرجة أنه لا يوجد عالم جاد يحلم بعمل تعديل يقوم على التخمين (على سبيل المثال : تخمين عما يجب أن يكون عليه النص) على الرغم أن ذلك شائع فى النصوص الكلاسيكية . إن قوة مخطوطات التراث تجعل مثل هذا الإجراء مستحيلاً .

ويوجد بالفعل (فى مانشستر) جزء من إنجيل يوحنا يرجع الخبراء تاريخه ما بين ١٠٠ م و ١٢٥ . ومن المرجح تماماً الآن أنه لدينا جزء من إنجيل مرقس ، مخبأ فى أحد كهوف قمران يرجع تاريخه إلى ما قبل ٦٨ م عندما كانت الجماعة المسيحية خاضعة لسيطرة الرومان ، وكان الكهف مختوماً . ويوجد حالياً نزاع فى الأوساط العالمية بشأن جزء من إنجيل القديس متى من ورق البردى يرجعه واحد من قادة علماء البرديات إلى حوالى ٦٠ م . ولدينا جميع الأناجيل الأربعة فى أوراق البردى قبل ٢٠٠ م بكثير . وهناك وثيقة تدعى « الإنجيل المجهول » اكتشفت منذ بضع سنين ، وقد كتبت قبل عام ١٥٠ م : وهذه الوثيقة تقتبس الكثير من الأقوال من الأناجيل الأربعة ، وهكذا تظهر قوة مصداقية هذه الأناجيل منذ ذلك الوقت المبكر . والهرطوقى القديم فالنتين والذى اكتشف أيضاً كتابه « إنجيل الحق » حوالى ١٣٠ م ، اقتبس من كتابات العهد الجديد بكثرة . وهكذا فعل آباء الكنيسة بوليكاربوس وأكليمندس الرومانى قبل ذلك التاريخ بثلاثين أو أربعين سنة .

وقبل نهاية القرن الأول ، أى فى أثناء حياة بعض من عرفوا يسوع ، لم يكن العهد الجديد قد كُتب فقط ، ولكنه كان فى الطريق إلى تجميع كل أجزائه معاً أيضاً . ومنذ البداية كان ينظر إليه كمصدر موثوق به للمعلومات عن يسوع كان موثوقاً بصحته حتى أن المسيحيين كانوا يقتبسون منه ويقدسونه كالعهد القديم تماماً . كان العهد الجديد ذا سلطان لدرجة أن الهراطقة عرفوا أنه يجب عليهم أن يقتبسوا منه بكثرة إذا كانوا يريدون لهرطقاتهم أن تُسمع .

كل هذا مكّن الأستاذ كينيون (Kenyon) عالم الحفريات الكتابية الشهير أن يستنتج قائلاً : « إن الفترة التى مرت بين تاريخى المخطوطة الأصلية وأقدم مخطوطة موجودة لدينا صغيرة جداً حتى إنه يمكن إهمالها ، وآخر أساس لأى ظل من الشك عما إذا كان الكتاب المقدس قد وصل إلينا حرفياً كما كتب أم لا لم يعد قائماً الآن » (الكتاب المقدس وعلم الحفريات، صفحة ٢٨٨).

هل يمكن أن نثق في المصادر ؟

على الرغم من أن معظم ما نعرفه عن يسوع موجود فى الكتابات المسيحية ، إلا أن المصادر غير المسيحية تشهد لصحتها ، ويكون من المناسب أن نبدأ بها . فهى بالتأكيد ليست متحيزة لصالح الدعوة المسيحية ! .

المصادر غير المسيحية :

أولاً: هناك دليل مأخوذ من الكتّاب الرومان الأوائل . لا يوجد الشئ الكثير الذى كتبوه عن يسوع . فأنت لا يمكن أن تتوقع أن يبدى رجال الأدب الأثرياء فى روما قدراً كبيراً من الاهتمام بنجار عاش بضع سنوات قليلة فى اليهودية ، على حافة خريطة الامبراطورية . ولكن القدر الموجود من الكتابات مثير للاهتمام .

كتب تاكتيتوس ، المؤرخ العظيم لأوائل عصر الامبراطورية حولياته فى بداية القرن الثانى . وهو يقدم فيها سرداً دقيقاً للأحوال فى روما عاماً وراء الآخر. وعندما يصل لعام ٦٤ م ، عند ما تم حرق معظم روما ، يوضح أنه يتفق مع الفكرة التى يتمسك بها معظم الناس بأن نيرون كان مسئولاً عنه ، لأنه أراد أن يعيد بناء منطقة كبيرة فى وسط المدينة لتكون قصراً له .

« للقضاء على هذه الشائعة ، اتهم نيرون بعض الناس الذين يطلق عليهم عامة الشعب لفظ المسيحيين » وعاملهم بقسوة بلا هوادة وألصق بهم تهمة الحريق . وكانت أنشطة هؤلاء المسيحيين شائنة وذات سمعة سيئة * ، والمسيح الذى ينتسبون إليه قد تم تنفيذ حكم الموت عليه عندما كان طباريوس امبراطوراً بأمر من الوالى بيلاطس البنطى . ولكن على الرغم من أنه تمت السيطرة على هذه البدعة الخطيرة ، إلا أنها تنتشر الآن مرة أخرى لا فى اليهودية فحسب ، مسقط رأس ذلك الشرير ، بل فى كل أنحاء روما ، حيث تصب فيها كل الأفكار الرديئة والمقززة من كل أنحاء العالم ، وتجد لها العديد من الأتباع » (الحوليات ١٥ : ٤٤) .

* كان الناس يروجون عن المسيحيين أنهم من آكلى لحوم البشر نظراً لفريضة العشاء الربانى ، والتناول من الخبز والخمر باعتبارهما يشيران لجسد المسيح ودمه ، وكانوا يشيعون عنهم أنهم يذبحون الأطفال لأداء هذه الفريضة . (المترجم) .

من الواضح أن تاكتيتوس لا يعرف الشئ الكثير عن المسيحيين ولا يحبهم ، ولكنه يوضح أنهم لم يحرقوا روما . وله معرفة أساسية « بمؤسس هذا الاسم » الذى وُلد فى اليهودية وعاش وقت حكم طباريوس (١٤ - ٣٧ م) وحكم بيلاطس عليه بالموت (الذى كان يحكم هذا الإقليم ٢٦ - ٣٦ م) . ويعرف تاكتيتوس أنه كان هناك عدد كبير من المسيحيين منذ الستينات .

ونعرف الشئ الكثير من بلينى الأصغر وهو معاصر لتاكتيتوس ، وقد أرسل فى عام ١١٢ م ليحكم بيثينية فى شمال تركيا. وقد كان يرسل كثيراً من الرسائل لاستشارة الامبراطور تراجان، ولا تزال المراسلات موجودة حتى الآن . وهو يكتب خطاباً واحداً مطولاً عن المسيحيين (الرسائل ١٠: ٩٦) . وهو يقول إنهم كانوا ينتشرون بسرعة كسرعة انتشار النار فى الهشيم فى الإقليم الذى كان يحكمه . وقد أصبحت المسيحية مشكلة اجتماعية واقتصادية . وكانت المعابد الوثنية تغلق أبوابها لقلة عدد الرواد ، ولم يعد أحد يحتفل بالأعياد المقدسة ، وتوقف الطلب على الحيوانات التى تقدم كذبائح للآلهة . ولذا فقد أعدم بلينى أولئك الذين رفضوا أن ينبذوا ولاءهم للمسيح . ولكنه شعر بوخز الضمير لذلك ، ولهذا السبب كتب إلى تراجان . لقد اكتشف أنه ليس هناك أى عمل غير لائق فى الاجتماعات المسيحية . كان كل ذنبهم أنهم رفضوا عبادة التمثال الامبراطورى وتماثيل الآلهة ، وأنهم فى اجتماعهم المعتاد فى يوم معين ، هو يوم الأحد ، كانوا ينشدون ترنيمات للمسيح كإله . وقال إن حياتهم كانت مثلاً أعلى يُحتذى به . فلا تجد لديهم الغش أو الخداع أو الزنا أو السرقة أو عدم الأمانة . وفى طعامهم المعتاد كانوا يأكلون طعاماً معتاداً بريئاً . تلك بلا شك إشارة لحقيقة أن المسيحيين كانوا يتحدثون عن « الأكل من جسد المسيح » فى العشاء الربانى : وذلك بالنسبة لمن يجهلون العقيدة المسيحية كان يبدو نوعاً من أكل لحوم البشر . ومن المؤكد ، أن بلينى لا يخبرنا شيئاً محدداً عن يسوع نفسه . ولكنه يوضح أن « الحركة المسيحية » قوة كبرى فى ذلك الإقليم المرتفع المتاخم للبحر الأسود. ويقدم هذا الحاكم الدنيوى شهادة على نوعية الحياة عند المسيحيين ، وعبادتهم الأسبوعية للمسيح كإله ، وعدم رغبتهم فى تقديم تلك العبادة للآخرين (حتى الامبراطور) ، وبراءتهم وانتشارهم بصورة كبيرة .

إن كاتبين فى سمعة بلينى وتاكتيتوس يجعلان من حقيقة تاريخية يسوع أمراً مؤكداً ،

ويؤكدان الأدلة التي نجدها بتوسع واستفاضة في الأناجيل .

ونجد أيضاً إشارات ليسوع في الأدب اليهودي في ذلك الوقت . وأكثر هذه الإشارات جذباً للانتباه يأتي من قائد يهودي لحرب العصابات ، هو فلافيوس يوسيفوس ، الذي حارب الغزاة الرومان في الحرب من ٦٦ - ٧٠ م ، وبعد ذلك أصبح مؤرخاً وحاول استعادة سمعة بني وطنه في أعين الرومان . وهو يحكي لنا قليلاً عن الشخصيات التي نجدها في الأناجيل : هيرودس وقيافا ويوحنا المعمدان ويعقوب « أخو من يلقب بالمسيح » ، ولكن أهم شئ إشارته المطولة ليسوع نفسه . وهي تستحق أن نقتبسها بالكامل .

« وقام في حوالي ذلك الوقت (يقصد وقت بيلاطس كحاكم ٢٦ - ٣٦ م) يسوع ، إنسان حكيم إذا كان لابد أن ندعوه إنساناً ، لأنه كان يقوم بإجراء أعمال مدهشة ، فقد كان معلماً لأولئك الذين كان يسعدهم قبول الحق . وقد كسب قلوب عدد كبير من اليهود ومن اليونانيين أيضاً . كان هو المسيح . وعندما حكم بيلاطس بموته على الصليب بإيعاز من قادتنا ، فأولئك الذين أحبوه أولاً لم يتسلل اليأس إلى قلوبهم . لأنه ظهر لهم في اليوم الثالث حياً مرة أخرى ، كما تنبأ الأنبياء القديسون ، وقالوا أشياء أخرى عجيبة عنه . وحتى يومنا هذا ، فإن المسيحيين ، الذين دُعوا بهذا الاسم بعده ، لم ينقرضوا » (التاريخ القديم ١٨:٣٣) .

ولاحاجة بنا للقول ، إن مثل هذه الشهادة القوية من مصدر معاد كيوسيفوس تعد شهادة مذهلة ، وقد أثارت قدراً كبيراً من الشك من جانب أولئك الذين لا يستطيعون أن يصدقوا أنها حقيقية . بل إن هذه الشهادة بالكامل ، موجودة في كل المخطوطات الباقية ليوسيفوس ، وقد قرأها يوسابيوس هناك في القرن الرابع للميلاد . لا شك أنها تحتوى على قدر من التهكم ، فالعبارة : « إذا كان لابد أن ندعوه إنساناً » قد تكون إشارة تهكمية لإعلانه أنه إله « كان هو المسيح » قد تكون إشارة للتهمة التي وضُعت فوق صليبه «يسوع الناصرى ، المسيا اليهودى» ، ولكنها تظل مؤشراً هاماً ، قوى الصياغة يشير إلى مؤسس المسيحية من قبل يوسيفوس (وهو نفسه من المعاصرين المتأخرين ليسوع) . إنها تشير إلى مسيانيته وحكمته وتعليمه ومعجزاته وعن المؤمنين الكثيرين الذين آمنوا به ، وموته وقيامته - دع عنك استمرار حركته .

والمصادر اليهودية والرومانية والأركيولوجية تقدم قدراً كبيراً من المعلومات عن يسوع ، ولكن ليس هناك وقت للخوض فيها ، سوى أن نقدم ملخصاً لما قالته . وتفيد هذه المصادر أن يسوع ولد من عذراء وأجرى المعجزات وحكم عليه بيلاطس بالموت على الصليب ، تحت جنح الظلام ، فى عيد الفصح . وأنه أعلن أنه الله ، وأنه سوف يرحل ويأتى ثانية . كان هو المسيح . وقام من القبر ، وكان له تلاميذ عبدوه كإله .

وانتشرت حركته بسرعة فى كل أنحاء العالم الرومانى فى أقل من جيل . وكانت رسالته الأساسية يمكن تلخيصها فى هذه الرسالة السرية Ichthus أى « السمكة » . فهى كانت تمثل يسوع المسيح ابن الله ، المخلّص .

المصادر المسيحية :

يمكنك أن تتساءل عن الأدلة المسيحية فى الأناجيل ؟ هل يمكن أن نثق فيها ؟ هناك أسباب مقنعة لتأييد ذلك :

أولاً ، ليس هناك كتب فى كل آداب العالم تم فحصها بدقة على مدى ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان مثل الأناجيل . واليوم فإن مصداقيتها راسخة كما كانت دائماً . فهى تخرج بعد كل امتحان بأقصى قدر من التقدير . وتلك حجة قوية تدعونا لنأخذ بمنتهى الجدية الصورة التى تقدمها لنا تلك الأناجيل عن يسوع .

ثانيا ، هناك تناغم ملحوظ فى الصورة العامة التى تقدمها - كصورة مختلفة عن الكتب المقلّدة التى ظهرت فى القرن الثانى للميلاد كاختلاف الطباشير عن الجبن . وليس هذا هو الحال فقط بين الأناجيل نفسها ولكن بينها وبين نمط التبشير الأول كما نعرفه من سفر أعمال الرسل ومن أجزاء أخرى من العهد الجديد ، إن مثل هذا التناغم غير المخطط بين كتّاب كان لكل منهم وجهة نظره الخاصة ، ولم يكونوا يعملون فى السر لخداع الآخرين ، يعطينا ثقة كبيرة فى التقرير الذى يقدموه لنا . إن هؤلاء الكتّاب للأناجيل لم يكونوا يتظاهرون بشئ ، بل كانوا يخبروننا عما حدث بالضبط .

ثالثاً ، ما قرأناه فى الأناجيل يتوافق بدقة مع الدليل العلمانى الذى ذكرناه سابقاً . ولكنه بالطبع يكمله ويجعله واضح المعالم . وبالإضافة لذلك ، فهو يتوافق تماماً مع ما يخبرنا به بولس الرسول العظيم فى إشاراته المتناثرة عن يسوع التاريخى .لقد كتب بولس فى الخمسينيات وأوائل الستينيات قبل كتابة أقدم الأناجيل . وإشاراته أكثر أثراً لأنها إشارات عابرة . إنه لا يحاول إثبات أى شئ ، أو تعليم قرائه أشياء جديدة عن يسوع . إنه يحاول فقط أن يذكرهم بما سمعوه عندما أصبحوا مسيحيين قبل ذلك ببضع سنين . ويصعب أن نحصل على مستند أفضل أو أقدم من ذلك يساند الدليل على صدق الأناجيل .

رابعاً : فإن بقاء شهود العيان على خدمة يسوع ، على قيد الحياة ، عامل هام لا يمكن إهماله عند تقييمنا لمصداقية الأناجيل . فلو أن كُتّاب الأناجيل كانوا يروون قصصاً مبالغاً فيها عما فعله يسوع وقاله ، فقد كان بإمكان عدد كبير من الناس كانوا يعيشون فى وقت نشر هذه القصص كان يمكنهم إبراز أى أخطاء محتملة . وفى تلك الحالة فإن الأناجيل ما كانت لتحصل على الذيوع والانتشار العالمى والاعتراف بصحتها كما حدث بالفعل . لم يستطع شهود العيان تكذيب السجلات : فقد كانت صادقة .

هناك طرق أخرى يمكن بها التحقق من مصداقية هذه الكتب الصغيرة الرائعة . فلو أن الكنيسة قد وضعت محتويات الأناجيل لخداع الناس ، لكنا نتوقع أن يضع التلاميذ على لسان يسوع أقوالاً تمس موضوعات ذات أهمية ملحة بالنسبة لهم . ولكن على النقيض من ذلك ، فنحن نجد أن قضايا مثل (ربوبية يسوع ، ومواهب الروح القدس ، والجدل بشأن أهمية الختان ، وإن كان يجب على المسيحيين أن يأكلوا طعاماً ذبح للأوثان أم لا) من الواضح أنها غير موجودة فى تلك الأناجيل . وهذا يعطينى قدراً كبيراً من الثقة فى أن كتّاب الأناجيل كانوا يقدمون تقريراً صادقاً ولا يختلقون أشياء كان يمكن أن تتلاءم معهم .

والأمثال تقدم دليلاً طريفاً ذكياً على مصداقية كُتّاب الأناجيل . فقد يتساءل الناس أحياناً إن كانت هذه الأمثال ترجع ليسوع نفسه أو إن كان المسيحيون الأوائل اختلقوها . ولكن لماذا يمكن لأى إنسان أن يدّعى بأن يسوع علّم بهذه الطريقة المتميزة إن لم يكن قد فعل ذلك حقاً ؟ من كان

ذلك العبقرى الذى ألّفها إن لم يكن المسيح نفسه ؟ هناك شئ واضح جداً . فعلى الرغم من وجود بعض الأمثلة لمعلمى اليهود ، إلا أنه لم يسبق لأحد أن علّم بأمثال كيسوع . ولم يستطع أحد بعده أن يعلّم بأمثال نظيره أيضاً . إن قادة الكنيسة الأولى لم تعلّم بأمثال ، ولكنهم علّموا ، وسجلّوا بأمانة أن يسوع قد فعل ذلك .

هناك وسيلتان للنقد يحب علماء العهد الجديد أن يستخدموها ولهم الحق فى ذلك . إحداهما يطلقون عليها « مقياس الشهادة المتعددة الأوجه » ، وهى تعنى ببساطة أن هناك سبباً قوياً لقبول صدق حادثة معينة أو قول ما إذا كان مدوّنا فى أكثر من جزئية من أجزاء الإنجيل . وبتطبيق ذلك على القصة المذهلة ليسوع وهو يطعم الخمسة آلاف شخص بعدد قليل من الخبز والسمك ، فهى موجودة فى كل الأناجيل الأربعة . وأنت لا تستطيع أن تجد دليلاً أكمل من ذلك مع حدوث حادثة مذهلة كهذه . إن القضية ليست هى البحث عن دليل على صدق ما قام به يسوع من أعمال ، بل عن مدى استعدادنا لقبول ما يقود إليه الدليل .

الوسيلة الأخرى تتعلق باللغة الآرامية ، فقد كانت هذه هى لغة فلسطين فى أيام يسوع : وكان يسوع معتاداً على استخدامها . لقد اكتشف خبراء اللغة الآرامية شيئاً رائعاً . فالكثير من تعاليم يسوع يمكن ترجمتها بسهولة مرة أخرى من اليونانية إلى الآرامية فتتحول إلى أصوات ذات نغمة موسيقية . إن هذا شئ نادر وجميل وهو أيضاً يسهّل حفظه عن ظهر قلب . وقد يكون ذلك هو السبب فى التشابه اللفظى الدقيق ، الذى يصل لحد التطابق ، والذى نجده فى بعض تعاليم يسوع المدوّنة فى الأناجيل الأربعة . فقد كان اليهود يتعلمون عن طريق الحفظ والاستظهار ، وهذه الآرامية ذات النغم الموسيقى الكامنة فى أجزاء من الأناجيل (والتى تظهر من آن لآخر فى كلمات مثل طاليثا قومى وأبا) يسهل جداً حفظها عن ظهر قلب . لاشك أن يسوع كان يعلّم بهذه الطريقة لأنه كان يريد لتعليمه أن يسهل تذكره وأن يسلّم للآخرين بدقة . ولدينا السبب المقنع لأن نؤمن أن ذلك هو ما حدث بالفعل .

هل يمكن أن نثق في القصة ؟

ولكن افرض أن قصة يسوع قد وصلت إلينا كما هي ، فهل يمكن أن نؤمن بها ؟ تلك هي المشكلة . فعلى الرغم من سمو القصة ، فهل يمكن تصديقها ؟

افترض أن مشكلتنا يمكن وضعها على شكل سؤالين رئيسيين . هل يسوع أكبر من مجرد إنسان ؟ وهل قام من القبر . دعنا نفكر في هذين السؤالين واحداً وراء الآخر . ولحسن الحظ ، فلا يعوزنا الدليل .

هل كان يسوع أكبر من مجرد إنسان ؟

كان اليهود ، الشعب الذي مشى يسوع وسطهم وتحدث إليهم ، من المتشددين في اعتقادهم بوحدانية الله ، فهم أقسى شعب في العالم يمكن إقناعه بأن يسوع كان أكبر من مجرد إنسان . ومع ذلك فقد اقتنع عدد كبير منهم . أعتقد أن هذه العناصر السبعة قد كانت من العوامل الحاسمة في إقناعهم . كما يمكن أن تكون كذلك بالنسبة لنا .

أولاً ، شخصيته : لقد سيطرت على البشرية من ذلك اليوم حتى يومنا هذا ، وهي تجذب الرجال والنساء على حد سواء ، الكبار والصغار ، ومن جميع الأنواع والجنسيات . لقد كان يجمع بين جميع الصفات التي نلصقها عادة بالرجل والمرأة . ولقد كان يشتمل على جميع الفضائل المعروفة للجنس البشري ولم يكن به أي رذائل . كانت تحوطه جاذبية مغناطيسية تتعلق بحياته ، كما سترى لو قرأت الإنجيل بعقل مفتوح . فعلى سبيل المثال ، فقد عامل النساء والأطفال بترحيب واحترام غير معهود في قديم الزمان . وترك الرجال أعمالهم ليجتمعوا حوله . فما الذي كان في خصائصه الوراثية وبيئته يمكن أن يفسر لنا مثل هذه الشخصية ؟ .

ثانياً ، تعليمه . إنه أعجب تعليم عرفه العالم . ولا يوجد تعليم يضاهيه قبل المسيح أو بعده . فعمقه وقوته ووضوحه وسلطانه يجعله مختلفاً عن جميع التعاليم الأخرى . كيف تفسر ذلك بالنسبة لنجار متجول ؟ .

ثالثاً ، سلوكه . لقد علم أسمى المثل العليا للسلوك ، وعلى خلاف أي إنسان آخر قبله أو بعده ، فإنه التزم بما علّم به ، لم يكن بحاجة لأن يعتذر - للإنسان أو لله . فهذا شئ فريد حقاً . وقال عن نفسه إنه بلا خطية ، تلك العثرة الداخلية التى تلوث كل ما بقى فينا . وكل أجزاء العهد الجديد تظهر أن تابعيه ، الذين عرفوه عن كثب وافقوه على ذلك . ولنتذكر المثل الفرنسى الذى يقول « لا يوجد إنسان بطل فى نظر خادمه الذى يرعى شئونه الخاصة » . ولكن هذا الإنسان كان كذلك ! وحتى أعداءه ، كيهوذا وبيلاطس وقيافا والفريسيين لم يقدروا أن يوجهوا له تهمة ما .

رابعاً ، معجزاته . إن هذه المعجزات لا تشكل ارتباكاً أو حرجاً للمسيحيين ، إنها دلائل واضحة على من هو يسوع . إن هذه المعجزات راسخة فى كل ما كتب تقريباً عن يسوع والتى ترجع لسنوات قليلة من حياته : وهذه الكتابات تتضمن شهادة اليهود عن معجزاته أيضاً . ومن المدهش أن نقارن بين تصديق الناس لرجال الفضاء والسفن الآتية من الكواكب المجهولة وشكهم فى ما يتعلق بمعجزات يسوع الموثّقة تماماً . لقد صُنعت المعجزات لفائدة الآخرين ، وليست لأغراض أنانية . وهى ليست مجرد قوات : إنها توضح وتؤيد أقواله . وعلى سبيل المثال ، فهو حين يطعم الجماهير يريد أن تدرك الناس أنه المشبع الحقيقى لحياتنا . وعندما يشفى الأعمى ، يريد أن يريهم أنه يستطيع أن يفتح الأعين العمياء روحياً . وبالمثل ، عندما يقيم إنساناً من الموت فهو يفعل ذلك ليدعم قوله بأنه هو « القيامة والحياة » . إن معجزاته لا تثبت وحدها لاهوته ، ولكنها تتناغم مع تلك الحقيقة .

خامساً ، إتمامه للنبوات . إن العشرات من نبوات العهد القديم قد تمت حرفياً فى يسوع الناصرى . ولا يوجد مثيل لذلك فى أى مكان فى تاريخ العالم . فتصورات العهد القديم المختلفة كابن الإنسان وابن الله وواضع الأساس النهائى للمصالحة بين الله والإنسان ، والنبى الممسوح والكاهن والملك ، وغير ذلك كثير من التعبيرات تلتقى فيه وفيه وحده . وهو يصور كالذى حل محل ناموس موسى والتجسيد الحى لمجد الله الذى كان فى هيكل سليمان فى القديم . وكثير من النبوات تتعلق بميلاده وموته - وهذان الجانبان يصعب إتمام النبوات عن طريقهما زوراً . فولادته

من عذراء ، فى بيت لحم ، وموته محتقراً مرفوضاً وسط مجرمين ، والذى حدث ليمكنه التعامل مع خطايا البشر ، والذى أعقبه الدفن فى قبر رجل غنى ، وقد تُوج بالقيامة والصعود إلى عرش الله – من بإمكانه ترتيب هذه الأحداث لإتمام كل تلك النبوات ؟

سادساً ، أقواله . إنها صارخة ، وجنونية إن لم تكن صادقة . فعلى الرغم من اتضاعه الشخصى وبساطة حياته ، فقد قال أقوالاً لا يجرؤ إنسان آخر على النطق بها ، لقد قال إن الله كان « آبا » (أبوه) ، { علاقة قرابة فريدة مثل « بابا » } ، وأن من رآه فقد رأى الآب . وقال إن له الحق فى غفران خطايا البشر ، وله حق السجود ، وإنه هو الديان النهائى للجنس البشرى ، وإنه الطريق الوحيد إلى الله ، وإن فيه كل الحقيقة عن الله وفيه حياة الله مجسدة فى جسم بشرى . ما رأينا فى أقوال كهذه ؟

أخيراً ، موته . إنه أشهر موت فى العالم . والملايين يحملون ما يذكرهم به على شكل صليب يعلقونه حول رقابهم . إن يسوع ، ليس كبعض الأصوليين الدينيين العصريين الذين يحبون الاستشهاد . لقد تصبب عرقه كقطرات الدم أمام هول الموت . ومع ذلك فعدم الأنانية البادية للعيان فى ذلك الموت ، والتضحية بالذات ، وتحمله لخطايا البشر وانتصاره جذب كل أنواع الناس إليه ولا يزال . وحقيقة أن مثل هذا الشخص الكامل ذهب طوعاً لمثل هذا الموت الرهيب ممتزجة مع التفسير الذى قدمه (للتكفير عن خطايا العالم كله) قد أقنع هؤلاء الناس . إنه قد أعطى قوة كبرى لسؤال يسوع : « ماذا يقول الناس عنى أنا ابن الإنسان ؟ وماذا تقول عنى أنت ؟ » .

هل قام يسوع من الأموات ؟

ولكن ماذا عن القيامة ؟ إن أقوال المسيح تعتمد ، إلى حد كبير ، على صدقها أو بطلانها . كيف يمكن لنا أن نقترب مما يبدو ظاهرياً أنه ادعاء سخيف ؟ علينا أن نقر به بعقل مفتوح . إن هذا أمر حيوى أن المسيحى يميل للقول : « إنها فى الكتاب المقدس هذا يكفينى » ، والمتشكك يميل للقول : « إن الموتى لا يقومون » . وعلى كل من المسيحى والمتشكك أن يلقيا بالتحيز

جانباً ، ولينظرا إلى الدليل . إنه يبدو لى أن خمس حقائق تتضافر معاً ، وكلها تشير إلى نفس الاتجاه .

أولاً ، يسوع مات : إن هذه النقطة لا تستحق الإشارة إليها لولا التأكيدات الضالة التى تقال أحيانا بأن المسيح لم يمت حقاً ، ولكنه شعر بأن الحياة دبت فيه فى رطوبة القبر فأقنع تابعيه بقيامته . إن هذه فكرة غير قابلة للتصديق بصراحة . فلا يمكن لأحد أن يعيش بعد اجتياز الصلب على أيدى الرومان ، فقد كانوا خبراء فى هذا النوع من القتل المرعب . وفى إنجيل يوحنا نجد شهادة مدهشة لأحد شهود العيان ، إنها تقول : « لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة وللوقت خرج دم وماء » (١٩ : ٣٤) . من الممكن أن الكاتب لم يكن يعرف الأهمية الطبية لهذه العبارة . ولكن انفصال الدم القانى المتجلط عن البلازما الفاتحة اللون من إحدى الدلائل القوية على الموت . ليس هناك شك أن يسوع قد مات .

ثانياً ، القبر كان فارغاً : هناك اتفاق تام بشأن ذلك . فقبل بزوغ فجر الأحد لم يكن جسد يسوع فى القبر الذى كان قد وضع فيه يوم الجمعة . من كان يرغب فى إبعاد جسده عن القبر ، وبذلك يلفت الأنظار لقصة القيامة ؟ .

إن الناس الذين يحتمل أن يفعلوا ذلك هم أعداؤه أو أصدقاؤه . وإنى أسألك ، هل يقدم أعداؤه الذين قضوا ثلاث سنين مرهقة يحاولون التخلص منه ، على إزالة جسده من القبر بعد أن تمكنوا منه أخيراً ووضعوه فى المكان الذى أرادوه له ؟ بالطبع لا . ثم ماذا عن أصدقائه ؟ إنى لا أستطيع أن أفهم كيف استطاعوا ذلك . لقد كان هناك مجموعة من الجنود عند القبر وحجر ضخم عند باب القبر - كان مختوماً بطريقة جيدة . اقرأ عن ذلك فى متى ٢٧ : ٦٢ - ٦٦ . وما هو أكثر من ذلك ، أن تابعيه ما كانوا ليقدموا على تلك الفعلة حتى لو استطاعوا . إن ذلك مستحيل من الناحية السيكلوجية . فقد كانوا يؤمنون كسائر اليهود أن الجميع سوف يقومون فى يوم الدينونة ، وليس قبل ذلك . ولما خارت روحهم المعنوية بسبب القضاء على شخص كانوا يعلقون كل آمالهم عليه ، فقد تفرقوا إلى بيوتهم بعد موته . إنهم بالتأكيد لم يكونوا يتوقعون قيامته . ويقال أحيانا إنهم كانوا يشعرون بالذنب لارتكابهم خدعة متعمدة ، إذ سرقوا الجسد

وادعوا أن يسوع قام من الأموات . إن هذا القول لا يمكن تصديقه . لأنهم طافوا بكل أنحاء العالم الرومانى بقية حياتهم يعلنون بجسارة حقيقة القيامة ، على الرغم من العقبات الصعبة . لقد تعرضوا بحر إرادتهم للاضطهاد والسجن والقتل بسبب تمسكهم بحقيقة القيامة . وأنت لا يمكنك أن تتحمل كل ذلك لأجل خدعة خططت لها ! .

ثالثاً ، ولادة الكنيسة المسيحية : يمكن اعتبار أحد القيامة البداية الفعلية للكنيسة . فشئ ما قد أقامها بقوة عظيمة وبفرح وثقة بعد القضاء على مؤسسها . فلو لم تكن القيامة قد فعلت ذلك ، فهل يمكن أن تذكر سبباً آخر يمكن تصديقه ؟ ، بادئ ذى بدء ، ليس هناك ما يميزهم عن بقية اليهود سوى إيمانهم الملتهب بأن يسوع ، المسيا الذى طال انتظاره قد قهر الموت . هذا هو الاعتقاد الذى أضرم النار فى الامبراطورية الرومانية كلها . إن التغييرات الكبرى الثلاث التى أدخلوها ، وهى المعمودية وفريضة العشاء الربانى ويوم الأحد لا يمكن فهمها بدون القيامة . ففى المعمودية أنت تموت مع المسيح عندما تغطس فى الماء ، ثم تدخل إلى عالم القيامة عندما تخرج منها . وفى فريضة العشاء الربانى ، أنت لا تلقى مجرد نظرة على موت بطل (كما كانوا يفعلون فى أعياد الذكرى اليونانية) . إنك تحتفل بتناول طعام ، يعد توقعاً للسماء ، مع يسوع المقام نفسه وإن لم يكن بصورة منظورة ! أما عن يوم الأحد ، فهذا شئ مذهل . فاليهود قد ظلوا قروناً طويلة يحفظون يوم السبت كيوم خاص ، لأنه كان يخلد ذكرى إكمال عمل الله فى خلق العالم (تك ٢ : ٢ ، خر ٢٠ : ٨) . ولكن بالتدريج فإن « أول الأسبوع » أى يوم الأحد ، حل محل يوم السبت كيوم الاحتفال الأسبوعى . إن ذلك اليوم لم يكن يعيد للأذهان ذكرى خلق العالم بقدر إعادة خلقه الممكنة عن طريق قيامة يسوع المسيح . لقد فتحت القيامة باباً جديداً للرجاء للجنس البشرى .

رابعاً ، لقد ظهر يسوع كثيراً لتابعيه بعد موته : فلدينا قصص عديدة عن ظهورات قيامة يسوع . فقد كان يظهر لفترة تعدت أربعين يوماً لمجموعة كبيرة من الناس فى أماكن مختلفة : الاثنى عشر تلميذاً ، يعقوب أخيه غير المؤمن ، توما المتشكك ، مريم المجدلية ، مريم أمه وما لا يقل عن خمسمائة شخص مرة واحدة . وأخيراً ظهر لشاول الطرسوسى ، عدوه اللدود ، وأحدث

ثورة في حياته . اقرأ الأحداث الواردة في متى ٢٨ ، مرقس ١٦ ، لوقا ٢٤ ، يوحنا ٢٠ ، ٢١ ، والرسالة إلى أهل كورنثوس ١٥ : ١ - ١١ ، والتي تعد أقدمها جميعاً . اقرأ ، واتخذ قراراً . هل يمكن أن يكون كل ذلك تهيؤات ؟ إن التهيؤات والخيالات لا تحدث لجماعات مختلفة في أماكن مختلفة وأوقات مختلفة . وبالإضافة لذلك ، فهي تعد دليلاً على تفكك الشخصية . ولكن ظهورات القيامة جلبت صحة جديدة ، وثقة جديدة و فرحاً ، وروحاً جديدة في التلاميذ الذين شهدوها . اقرأ سفر أعمال الرسل وانظر الأحداث التي أعقبت القيامة بنفسك .

وأخيراً ، الكنيسة : فقد تغيرت حياة الكثيرين بلقاء يسوع المقام هذا ، ولازالت تتغير حياة العديد من البشر . فكِّر في بطرس ، الذي تغير من شخص جبان ومتقلب الرأي عندما ترك يسوع عند الصلب إلى رجل ثابت الرأي كالصخر قد تأسست الكنيسة على شجاعته وشهادته . وفكِّر في شاول الطرسوسي الذي تقابل مع يسوع المقام في الطريق إلى دمشق عندما كان في مهمة للقضاء على المسيحيين ، لقد أصبح أكبر مرسل مسيحي غيرة وذكاءً شهده العالم . وفكر في التلاميذ كجماعة ، لقد تركوا يسوع في ساعة الشدة ، ولكنهم بعد أول أحد للقيامة كانوا مستعدين لتحمل كل شيء وهم يدافعون عن القيامة التي حولتهم من جماعة متراجعة إلى كنيسة. أو فلتفكر في يعقوب ، أخي يسوع ، الذي كان يشك فيه طوال حياته على الأرض ، ولكنه بعد القيامة أصبح قائداً لكنيسة أورشليم . ما الذي أوجد الفرق ؟ إنها القيامة . « وبعد ذلك ظهر ليعقوب » (١ كو ١٥ : ٧) .

عندما تتأمل جيداً ويتمعن في التغيير الذي حدث في حياة هؤلاء الناس ، وفي حياة الملايين في كل أنحاء العالم من كل بيئة وأمة وثقافة ، وعندما تفكر في أنهم جميعاً نسبوا تغييرهم للقيامة ، وعندما نتأمل في الحقيقة المذهلة أنهم لم يقولوا ببساطة إنه قام من الموت ولكنه حي اليوم وهم يعرفونه ويتصلون به - فأعتقد أنك تتفق معي أنه يوجد لدينا دليل قوي على أن قصة القيامة حقيقية ، وأن المسيح قوة جبارة يعمل حسابها اليوم .

تلقيت رسالة منذ فترة مضت من إنسانة قد ساعدها كتاب كتبته عن قيامة يسوع . فقالت : « كتابك قد فتح عيني أكثر الشخصيات شكاً كتوماً . أشكرك لأنك كتبت بوضوح تام عن

القيامة . كنت أعرف عنها منــذ الطفولة ، ولكن اتضحت لى الحقيقة مؤخراً وقد قاربت الخمسين .

« لماذا يتكلم الوعاظ عن القيامة فى كنائسنا كل أحد ؟ هذا هو الخبر السار الذى كنت أبحث عنه طويلاً . كنت أعتقد دائماً أن الخبر السار هو غفران الخطايا - ولم يكن يعنى بالنسبة لى هذا كثيراً ومن المؤكد أنى لم أكن شاكرة بما فيه الكفاية . ولكن هذا الخبر ، قد أحدث تغييراً كبيراً فى حياتى » .

إنها بالفعل كذلك . إنى اعتبر قيامة يسوع أفضل خبر قدم للبشرية - من قبل الشخص الحقيقى الذى جاء من خارج الكرة الأرضية . فما رأيك ؟ .

الفصل السادس

أوهام باطلة

استطاع الشيطان أن يقدم للعالم الغربى سلسلة من النظريات الحديثة كالشيوعية (قد عفى عليها الزمن الآن) ، والفردية ، والذاتية ، والتحليلية وما شابه ذلك ، ولكن ليس هناك ما هو أخطر من المادية والنسبية والتعددية . دعنا نلقى نظرة عليها ، ونرى إلى أى مدى يمكنها الثبات أمام الفحص الدقيق فى ضوء الحقائق التى ذكرناها فى الفصل السابق .

المادية

المادية هى الفلسفة المسيطرة على القرن العشرين ، فنحن مهتمون بالمال سواء كنا فقراء أم أغنياء . فنحن خاضعون لسيطرة الرغبة القوية أن نمتلك المزيد والمزيد من الأشياء . فشعارات مثل « الجشع ، هو ما يعيد بناء هذه الأمة » أو « من يموت ومعه أكبر عدد من اللعب ، يفوز » تكشف اتجاه مجتمعنا بوضوح . من يقول إنك لا تمتلك كل شئ - مادمت تمتلك بطاقة الائتمان الأمريكية ؟ إن العقلية الاستهلاكية قد أصبحت هى العقلية السائدة فى كل أنحاء العالم . انظر إلى ما حدث فى روسيا منذ انهيار الشيوعية - أسوأ أشكال المادية الغربية انتشر هناك . ولو أن هناك مادة فى قانون الإيمان تصف حالة الناس فى أواخر القرن العشرين فسوف تكون هى قناعة الناس بحقها المطلق فى امتلاك المزيد ... والمزيد . فقد أصبحت عملية الشراء هى أفضل شئ لتمضية وقت الفراغ . ومع الاعتذار لديكارت يمكن أن يقال : « أنا أشترى إذن فأنا موجود » أو « المال جُعل للشراء » ، لقد مضت المبادئ المثالية للستينيات وأوائل السبعينيات . فالهدف الرئيسى للحياة فى الوقت الحاضر ينحصر فى النجاح المادى والحصول على قدر من الأمان .. وأصبح المال طريقة لتحديد من تكون على قدر ما نملك . فعندما تختفى القيم ، يصبح المال كل

شئ . بل إنه فى الواقع يعنى الشئ الكثير ، ولذا فقد أصبح معبوداً . فأنت يمكنك أن تفهم شيئاً عن معتقدات وأولويات العصور الوسطى عن طريق الكاتدرائيات الضخمة التى خلفها الناس وراءهم . وتستطيع أن تعرف الشئ الكثير عن المجتمع الحديث من مراكز الشراء الضخمة ، التى يذهب الناس إليها بدلاً من الكاتدرائيات سعياً وراء حب تملُّك السلع ومظاهر الشراء . فى نهاية الحرب العالمية الثانية لم يكن فى أمريكا كلها سوى ٨ مراكز تجارية كبرى للبيع والشراء . وما بين ١٩٧٠ و ١٩٩٠ ظهرت ٢٥ منطقة أخرى . وأكبر مركز تجارى فى العالم يطلق عليه «المركز التجارى فى وست ادمنتون » . ويوجد فى هذا المركز ٨٢٨ محلاً تجارياً و ١١٠ مطاعم ، وبخلاف ذلك يمكن ممارسة جميع أنشطة وقت الفراغ . هناك حديقة ضخمة بها حمام سباحة ، وشريط سكة حديد ، وغواصات ودرافيل وسفينة شراعية بالحجم الطبيعى وحوت من البلاستك . فقد أصبحت عملية الشراء نشاطاً مرهقاً . فيمكنك أن تقضى النهار كله فى مركز تجارى كهذا بسهولة ، لقد أصبح أسلوب حياة .وهذه المراكز قد انتشرت فى بريطانيا أيضاً ، فيكتب مايك ستاركى (Mike Starky) قائلاً : « إن المراكز التجارية الضخمة ، والمبانى التجارية هى معابد العصر الحديث » فى كتابه « وُلد ليتسوَّق » :

« إن الآلات الضخمة لصرف المال فى البنوك هى المعابد التى نذهب إليها لإجراء المراسم الطقسية للإله الذى يحركنا ، فالأيقونات التى كانت تقدم للناس فى العصور الوسطى أفضل الشخصيات التى يقدسونها فى الحياة قد أفسحت الطريق للرفوف التى تقدم أفضل الأشياء فى قوائم الاستهلاك ... فى العصور الأولى كانت مصاعب الحياة تواجه بإيمان وطيد ، حتى لو كانت المشكلة تنبع من الطبيعة البشرية . واليوم فلنا حلولنا الخاصة للمشكلات . فعندما تتعقد الأمور ، فإن ذوى الحظ يذهبون للشراء » .

خواء المادية :

عندما نتوقف للنظر فى هذا الموضوع بعين فاحصة ، يصعب ألا نوافق على أن المادية هى أيديولوجية خطرة بنوع خاص . إنها باطلة لأن الناس أفضل من الأشياء ، والناس يفقدون قيمتهم

عندما تكون الأموال هى السيد . وخير مثال لذلك ما نجده فى المسلسل التليفزيونى الواقعى « أطفال هوليود » الذى يبيِّن الحرمان العاطفى والفراغ الداخلى الذى يعانيه أبناء نجوم السينما الأثرياء ، فهم أبناء مساكين لوالدين قد تخلوا عن العلاقات العائلية بحثاً عن الشهرة والمال . وهم ليسوا وحدهم فى هذا المضمار : فعدد كبير من الأطفال فى بريطانيا يشعرون اليوم أن والديهم يقدمون لهم اللعب ، ولكنهم لا يخصصون لهم وقتاً ، فيشعرون بفقر روحى .

هناك مشكلة أخرى « فالمادية تسبب الإدمان . فكلما امتلكت المزيد ، زادت تطلعاتك . والرومان كان لديهم شعار عن المال يقول : « المال كماء البحر المالح . كلما شربت منه ، كلما ازددت عطشاً » . أو كما قال الاقتصادى اللورد كينيس : « لابد أن الشراهة والطمع يظلان إلهين لنا لمدة أطول » .

وأسوأ من ذلك ، إن المادية بلا شك تقسِّى قلوبنا وتجمد عواطفنا ، فما أن نصمم على إعطاء المال والممتلكات الأولوية فى حياتنا ، حتى يصبح الآخرون فى مرتبة ثانوية بالنسبة لنا . ومجتمعنا أقل تعاطفاً الآن عما كان عليه فى الماضى حينما لم يكن الجرى وراء الشراء هو شغلنا الشاغل . لقد أصبحت بريطانيا دولتين ، الشمال الفقير والجنوب الغنى ، ونحن لم نعد نهتم بذلك . ونحن نشاهد المآسى المرعبة تحدث فى رواندا والبوسنة على شاشة التليفزيون ، ونهز أكتافنا . ياله من شئ محزن ، لقد شهدنا فى حياتنا ثمرتين سامتين للمادية . لقد عرفنا الوجه الجامد غير المقبول لكل من الشيوعية وحب تملك الأشياء . فلابد أنه يوجد بالتأكيد طريقة أفضل للمعيشة عن هاتين الطريقتين ؟.

هناك جانب جوهرى فى الطبيعة البشرية ، يكشف عنه أسلوب الحياة المادى أكثر من أى شئ آخر . إنه التناقض الناتج من مبدأ المتعة ، فالبحث عن اللذة مخيب للآمال . يوجد فى القلب البشرى فراغ لا تملأه أى لذة وقتية عابرة . وإنى متأكد أنك شعرت بذلك فى حياتك . إنه ذلك الفراغ الذى تشعر به فى عصر يوم عيد « الكريسماس » ! ويشعر به أكثر الناس ثراء فى العالم أيضاً . تزوج بول جيتى ، أغنى الناس فى جيله ، خمس مرات . ولم يتزوج للمرة السادسة لأن أحد المنجمين قال له « لن تعيش طويلاً بعد الزواج السادس » ، وقد أراد أن يبلغ المائة . وكان

قد تقابل مع المنجم وعمره ٨٤ عاماً ، وكان يعيش فى منزل تحرسه الكلاب . وكان يرتعب من العزلة ولكنه كان يرتعب أيضاً من الناس . وعاش ليعمل . إن أغنى أغنياء العالم كان مفلساً فى الداخل . وهو ليس استثناء . وقد عبر « سنياد أوكنر » المغنى الشهير عن ذلك بصراحة حين قال : « إننا نشعر بفراغ كأمة . هذا لأننا نعيش فى فراغ روحى ... ونتيجة لذلك فنحن نحاول ملء الفراغ بالخمر والمخدرات والجنس أو المال » .

كلا ، إن المادة لا تشبع قلوبنا ، وهى لا تدوم . وأن تتكل على الثروة فهذا يعد فى منتهى الحماقة . فانهيار الأسهم فى البورصة يمكن أن يقضى على كل مالدينا من أموال فى ليلة واحدة . والبطالة تغرق البلاد ، ومن الممكن أن تضرب ضربتها فى المناصب القيادية فى مجالس الإدارة كما تفعل تماماً فى أصغر الوظائف . والمرض يمكن أن يقضى على كل متعة نجدها فى ممتلكاتنا التى اتكلنا عليها ووثقنا فيها . وحين تسافر إلى دولة من دول العالم الثالث تدرك تماماً مقدار الظلم بسبب سوء توزيع الثروة ، وذلك يجعلنا نشعر بالخجل لشراهتنا . ويعطينا التأمل فى ما يفعله حب امتلاك السلع تحذيراً هاماً ضد مآسى المادية واعتبار النمو المتزايد لإجمالى الناتج القومى هدفاً للاقتصاد . إن الجنون يظهر بأجلى بيان فيما يأتى - قطع الغابات الاستوائية المتبقية ، وتدمير طبقة الأوزون ، وارتفاع درجة حرارة الأرض ، وتلوث الماء والتربة ، والانكماش السريع فى حجم نفس « التورتة » المحدودة التى نريد جميعنا أن نأكل منها شرائح أكبر . إن شهوة الجمع والتكويم التى أطلقنا لها العنان فى مجتمعاتنا الغربية قد انقلبت علينا لتدمرنا .

إن المادية ، فى حقيقة الأمر ، لا تدمر بيئتنا فقط ، بل أنفسنا أيضاً. إنها شديدة التدمير لكل عنصر طيب فى شخصياتنا ، وتؤدى فى أغلب الأحيان للحسد والشهوة والترف والطمع والقتل والانتحار كما يوضح الفيلم البريطانى «القبر الضحل » مؤخراً. إنها تضعف ما هو حق وجميل فينا وتؤدى عمل السم البطئ . كما عبر عن ذلك تشسترتون (G.K.Chesterton) بقوة بالغة بالقول : « إن الشخص الذى يتكل على ترف هذه الحياة شخص فاسد ، فاسد روحياً، وفاسد سياسياً، وفاسد مالياً. فالمسيح قال إن ثراء هذه الحياة يؤدى لخطر الانزلاق نحو الانهيار الأخلاقى » .

البديل الذي نحن في أشد الاحتياج إليه :

إن كلمات تشسترتون هذه تأتى بنا وجهاً لوجه مع يسوع والمستوى الذى يضعه لحياتنا . لقد قيل عنه على لسان أحد تابعيه الأوائل « مع أنه كان غنياً ، فقد افتقر لأجلنا ، حتى نغتنى نحن بفقره » . ويمضى الكاتب ليتحدث عن صفات غنى الشخصية والكرم والمحبة التى يهبها المسيح لتابعيه . إنها صفات جذابة . تأمل فى غنى يسوع الذى هو شريك فيه مع أبيه السماوى : فكما ذكرنا فى الفصل السابق فهو المصدر والحافظ والهدف لكل الكون ، ومع ذلك فقد صار إنساناً - ليصل إلينا فى عمانا الروحى وأغلالنا . وهو لم يولد فى أسرة ثرية بل فى بيت متواضع ، بيت واحد من الطبقة العاملة . لم يولد فى قصر ، بل فى مذود بقر . لم يحيا حياة الترف ، بل كان يقوم بالعمل اليدوى المضنى بأمانة أعقبته سنوات قليلة من التبشير وشفاء الجموع . لم يكن له بيت يعيش فيه بصفة منتظمة ولا زوجة أو عائلة ، أو أى موارد باستثناء شخصيته الباذلة المضحية . ومع ذلك فقد كان سعيداً سعادة غامرة . ألا يجعلنا هذا نخجل من حبنا للمقتنيات ؟ إن حياته كلها كانت احتجاجاً ضد المادية . فقد أعلن أن حياة الإنسان ليست من مقتنياته وأملاكه الكثيرة . وقد روى قصة رائعة لتأييد هذا القول . كان هناك إنسان غنى قد أخصبت كورته . وكان ينوى أن يتوسع فى مزارعه ويبنى مخازن أوسع لأنه كان يمنّى نفسه بعيش مترف . ولكن الله قال له :« يا غبى فى هذه الليلة تطلب نفسك منك ، فالذى أعددته لمن يكون ؟ » . لقد فاجأته نوبة قلبية فى الليل ، وكل الكنوز التى اقتناها قد تركها لشخص آخر . لقد كان غبياً حقاً ! .

لقد أصبح المال أفيون الناس ، والبحث المحموم عن الثراء هو مرض العصر . إننا بحاجة لرؤية أكبر وأعظم من حب المقتنيات الشخصية . فالاقتصاد ليس مؤشراً صحيحاً على هويتنا . إننا بحاجة لاستعادة صفات التعاطف وضبط النفس والكرم . فشراهة الأغنياء يجب أن تقل حدتها لإفساح الطريق لحاجة الفقراء ، علينا أن نعتنى بكوكبنا ، فهو الوحيد الذى نمتلكه . علينا أن نديره لا أن ندمره . وفوق الكل ، علينا أن نستعيد ذلك الاحترام للآخرين كبشر مخلوقين على صورة الله ، وليسوا مجرد وسائل لإشباع أهوائنا . إن العهد الجديد يقدم لنا مثل هذه الرؤية ،

وهي يمكن أن تتحقق عندما يصبح ليسوع المسيح المكان الأول في حياتنا .

من أقوى العبارات في هذا الموضوع في السنوات الأخيرة ما ذكره الكسندر سولخنتسين (Alexander Solthenitsyn) . فالرجل العجوز الذى تعلم حكمته في معسكر اعتقال كان يخاطب مجموعة من الطلبة من الشباب الأثرياء الذين حصلوا على أكاليل من الورد بسبب إنجازاتهم في جامعة هارڤارد . وفي خطاب حفل التخرج في عام ١٩٧٨ كانت هذه هي نصيحته :

« إذا كانت الإنسانية محققة في إعلان أن الإنسان وُلد ليسعد ، فلا يصح أن يولد ليموت . وحيث أن جسده محكوم عليه بالموت ، فعمله على الأرض ... يجب أن يكون ذا طبيعة روحية ، فهو لا يمكن أن يكون تركيزه على الحصول على متعة لا ضابط لها من متع الحياة اليومية . ولا يمكن أن يكون هذا البحث عن أفضل الوسائل للحصول على السلع المادية ثم يفرح بالحصول على أكبر قدر منها . إن عمله يجب أن يكون إتماماً لواجب دائم جاد حتى تصبح رحلة الحياة تجربة للنمو الأخلاقي ، حتى يترك المرء الحياة كائناً أفضل مما كان عليه عند بداية حياته » .

لقد وجد سولخنتسين مفتاح ذلك التغيير في يسوع المسيح . لقد توصل لهذا الاختيار بعد تفكير جاد وتدبير وروية . هل كان محقاً في ذلك ؟

النسبية

كنا نجلس في مطعم نتناول الغذاء ونناقش القضايا الأخلاقية ، حين قال صديقي : « كانت الأمور أسهل بكثير عندما كنت صغيراً » ، « فكنا نعرف ما هو صواب ، على الرغم أننا كنا دائماً لا نفعله » ليس هكذا الحال اليوم . فنحن نسن قانوننا الأخلاقي وفقاً لمقتضيات الحال . فليس هناك شئ مثل « صواب » ولكن ما يبدو صواباً لي فحسب . وقد يكون ذلك مختلفاً بالطبع عما يبدو صواباً بالنسبة لك .

إن للنسبية تأثير كبير هذه الأيام . بل إنها في الواقع تؤخذ كقضية مسلم بها . إنها تتطلب

منا القليل من المطالب الأخلاقية لأننا نستطيع تخفيض مثلنا العليا إلى الحد الذى نشعر أننا نريد أن نصل إليه . إنها تسمح لنا أن نتخلص تقريباً من كل فضيلة فى الكتاب المقدس إذا رغبنا فى ذلك فيما عدا التسامح ، فالتعدى على هذه الفضيلة خطيئة كبرى لأن التسامح يبرر أن أفعل ما أريد دون أن يوجه إلىّ اللوم . والنسبية ليست جذابة فقط ولكنها تتوافق مع الثقافات العديدة المختلفة التى تتصارع مع بعضها البعض فى شوارعنا .أنت تفعل ما تريد ، وأنا كذلك . ولكن لا تضايقنى . ما وجه الخطأ فى ذلك ؟ .

الإعتراض على النسبية :

هناك أخطاء كثيرة فى هذا المبدأ . أولاً وأهم شئ ، إنه لا يعنى شيئاً . فقد تشعر بإحساس رائع بالتحرر ، بلا شك عندما تصيح قائلاً : « لا توجد مثل عليا مطلقة . كل شئ نسبى » . ولكن هذا هراء أيضاً . لأن الشخص الذى ينادى بذلك بوضوح يتوقع منا أن نقبل كلامه كحقيقة مطلقة ! فيمكن أن نتأمل فى الأشياء بطريقة نسبية ماعدا القول الجازم بأن كل شئ نسبى . فالجدل النسبى يطالب بقبوله كشئ مطلق .

ولكن هناك اعتراضات أكثر جدية على النسبية . فأن تجعل مُثلك العليا وفقاً لأفضلياتك ، فإن ذلك يؤدى باستمرار لانهيار المجتمع . ونحن نرى ذلك فى مجتمعنا اليوم حين نرى الجريمة قد وصلت لمستوى غير مسبوق من قبل ، خاصة عند الصغار ، فهم لا يرون شيئاً خاطئاً فى سرقة سيارة وقيادتها بسرعة مائة ميل فى الساعة ثم إحراقها بعد ذلك . وبعضهم قد تم القبض عليه ثلثمائة أو أربعمائة مرة ، ولكن لا يمكن عمل شئ ما . فهم أصغر من أن يسجنوا حتى فى مؤسسة للأحداث . إن ذلك يغضب الشرطة كثيراً . أمس فقط ، كان هناك ثلاثة أولاد وبنت اقتحموا رجل عجوز يعانى من مرض السرطان ، فضربوه ضرباً مبرحاً ثم قتلوه وأخذوا يرقصون فرحاً بعد ذلك . إنها حالة من حالات النسبية المتطرفــة فى المبادئ الأخلاقية بالنسبة لك ، ولكن مثل هذه الأحداث تتزايد بصورة ملحوظة . قدَّم أحدهم لابنة واحد من أصدقائى عقاراً مخدراً فى أول يوم ذهبت فيه للمدرسة ، فقد اعتقد هذا الشخص أن ذلك « صواب » .

فالأكاذيب والانحطاط الأخلاقى من الأشياء الشائعة فى العمل والسياسة . إن الثقة تنهار . وقد كانت كلمة الشركات الكبيرة والمؤسسات فى المدينة تعد قيداً تلتزم بها . ولكن الآن من الواضح أنه إذا كان كل فرد يرغب أن يفعل ما يحلو له ، فلن ينتج سوى الفوضى فى المجتمع . يصور رون بيبى (Ron Bibby) عالم الاجتماع الكندى الموقف تصويراً واضحاً فى كتابه عن المجتمع الكندى بقوله : « إنه يمثل أخلاطاً معقَّدة من أنواع الجنون » . فالحرية الفردية دب فيها الفساد . وليس هناك أى نوع من أنواع الترابط والالتزام . هذا ما يحدث إذا لم تكن هناك معايير موضوعية .

والنسبية بالطبع تؤدى إلى أنانية مفرطة ، تهدم الآخرين كما تهدم أنفسنا أيضاً . والفرنسيون يطلقون عليها كلمة Anomie . إنه المرض السريع الانتشار فى المجتمع – إحساس بالضياع ، مرض عاطفى ينتج من المعيشة بلا علامات مضيئة تهدى الطريق . إنه الاغتراب الذى يعد صفة مميزة فى عصرنا . « المال ، النجاح ، كلها أشياء بلا معنى لها .إنى ميت من الداخل. إنى أشعر أنى أبلغ ألف سنة من العمر . لقد مللت كل شئ حتى أموالى » . هذا ما قاله لايل ستيوارت Lyle Stewart ملك مجلات الصور العارية المثيرة جنسياً ، ولكن هذا الكلام قد يكتبه أى شخص ناجح آخر كما عبر نويل كوارد(Noel Goward) عن ذلك فى إحدى مسرحياته : « إن الماضى يصيبنى بالاكتئاب ، والحاضر يصيبنى بالملل ، والمستقبل يخيفنى حتى الموت » .

ثلاثة كتاب ذوو تأثير عظيم :

إن أخطار النسبية واضحة على المستوى العالمى . فإذا لم تكن هناك معايير أخلاقية موضوعية تكبح جماح البشر والأمم ، فهم أحرار ليفعلوا ما يشاءون . « ألا يوجد إله ؟ إذن فكل شئ مباح » . كانت هذه رؤية ديستوفسكى فى « الإخوة كارامازوف » . وقد كان محقاً فيما ذهب إليه . وهذا ما عملته الشيوعية الإلحادية فى روسيا عندما اقتحمت تشيكوسلوفاكيا وأفغانستان . وكانت هذه فلسفة النازى عندما قرروا سيطرة الجنس الآرى وتصفية ٦ مليون

يهودى . وهل تذكر موقف مجرمى الحرب النازين عندما أحضروهم للمحاكمة ؟ لقد قال كل منهم « كنت فقط أنفذ الأوامر » .

منذ قرن مضى رأى الملحد فردريك نيتشه بوضوح أنه إذا تم استئصال فكرة الله والقيم التقليدية فإن الأقوياء يمكنهم فرض إرادتهم على بقيـــة البشـــر . وقد قاده ذلك إلى وضع نموذج « السوبرمان » وقاعدة « إرادة القوة » . وقد شهد هذا القرن ذلك السيناريو فى روسيا وألمانيا وصربيا وفيتنام . فهذا القرن هو أشد القرون دموية فى التاريخ . ربما كان وليم پن على حق حين قال : « إن الأمم يجب أن يحكمها الله وإلا سيحكمها الطغاة » . فعلى التاريخ أن يبرز مثلاً واحداً على النسبية التى تقدم حكومة مستنيرة خيِّرة . وإذا لم تكن صالحة للدولة ، فلن تكون صالحة للفرد ، مهما بدت مغرية كفلسفة .

من بين أقوى الكتب وأكثرها فكراً مستنيراً هذا القرن ، كتاب وليم جولدنج «رب الذباب» . وفى هذا الكتاب فهو يظهر النتائج المأساوية بل والمدمرة للطبيعة البشرية عندما لا تحكمها أى معايير موضوعية - حتى وإن كانت هذه الطبيعة تنتمى لمجموعة من أطفال المدرسة . إن النسبية فى الأخلاق لا تصلح . إنها وصفة للفوضى . وهى بالتأكيد ليست شيئاً صحيحاً فى حد ذاته . فهى أبعد ما تكون عن ذلك . إن أمم العالم لا تذهب فقط لأى قيم قديمة ،بل إنها تتفق على فضائل حقيقية تقبلها وتحاول تنميتها : كالشجاعة والأمانة والأمانة الزوجية ورعاية الأطفال والأدب - كل هذه صفات تلقى مديحاً فى كل ثقافة ودين . إنها تعترض كل الأدلة التى تزعم أن النسبية الأخلاقيــة هى الطريق إلى التقدم ،بل على النقيض فهى الطريق نحو الانحلال والنهاية .

التفنيد النهائى :

فى يسوع الناصرى ، نجد المثل الأعلى على حياة تظهر كل الفضائل المعروفة للبشر ، ولا نجد أى رذائل . إن هذه الشخصية كانت ملهمة لمعظم ما نراه من فنون جميلة وموسيقى وطب وخلق بعده بألفى سنة حتى الآن . هل ننتقد هذه الشخصية ونقول إنه ، فى ضوء النسبية ولياقتها

السياسية الحالية ، فإنه لا يهم إن كنا نختار مبادئ يسوع أو مبادئ هتلر وستالين ؟ هل نتحدر إلى المستنقع الأخلاقى للنسبية ؟ أم أن هناك صخرة صلبة تبرز وسط الحمأة ؟ هل جاء الإله العظيم غير المتغير (المطلق) إلى العالم المتغير (النسبى) ؟ هل يمكن أن تكون أفضل نصيحة أن نتبع دعوته للحياة فى أجمل صورها « تعال واتبعنى » . إن لنا الامتياز بأن نختار.

التعددية

معنى التعددية :

مذهب التعددية من أكثر الأيدلوجيات المنتشرة فى عصرنا . دعنا نوضح ما نتحدث عنه . جميع الدول الغربية هى مجتمعات « تعددية » هذه الأيام ، فهى ذات ثقافات مختلفة وعقائد وأجناس مختلفة . ونحن يجب أن نفرق بين هذه التعددية ومذهب التعددية . إن مذهب التعددية يضع فارقاً جوهرياً بين الحقائق والقيم . فالحقائق عامة ونحن من المفروض أن نتفق معها - مثل تاريخ معركة هاستنجز أو وجود البرلمانات ، ولكنها مختلفة تماماً عن القيم والمعتقدات . فالأخيرة أشياء خاصة ومتنوعة . ومن هذه الناحية لا توجد أعراف سائدة ، فإنك لك آراؤك وأنا لى آرائى . وجميعها صالحة على حد سواء - ونسبية أيضاً . فاليقين فى مسائل الديانة مستحيل وهو من غير المرغوب فيه على أى حال لأنه معوق اجتماعياً . كل الديانات تقود إلى الله . والإخلاص ، وليست الحقيقة ، هو الشئ المهم (على أى حال ما هى الحقيقة ؟) . المهم هو التسامح الدينى .

فى ضوء هذه الحقيقة فكل دعاوى الحق مشكوك فيها ، وليست أكثر من إصرار من جهة المسيحية على أن يسوع هو الطريق إلى الله ، ومصدر الحق عن الله ، وحياة الله ذاته . وحديث كهذا يعتبر حديثاً ضيق الأفق ولا يتسم بالتسامح بل بالتعصب . إنه لا يستطيع الصمود فى وجه النقد ، دعنا نلقى نظرة على مذهب التعددية .

مذهب التعددية ليس حديثاً :

كثيراً ما يقال إن الفكر العصرى قد جعل المسيحية التاريخية مهتزة الأركان - وأننا تقدميون جداً لدرجة أننا لا نؤمن بما تنطوى عليه المسيحية بعد الآن . ولكن قليلاً من التأمل سوف يرينا أن الحال ليس هكذا . فبمجرد أن انتشر مذهب وحدانية الله فى العالم على أيدى اليهود القدامى ، كان عليه أن يواجه كل تحديات مذهب التعددية . فالكنعانيون والموآبيون والحويون والحيثيون وكل بقية الشعوب الأخرى أحاطوا جميعاً بدولة إسرائيل الصغيرة كالنحل ، وكانت لهم معتقدات مختلفة ومقززة عادة ، وحاولوا إغراق الإيمان اليهودى بإله قدوس واحد أو إذابتها فى أساطيرهم . وقد صمدت اليهودية بإصرار ضد كلا الفريقين . وقد دهش الرومان لهذه العقيدة التى لم تختلط بالعقائد الأخرى حولها ومنحوا اليهود امتيازات خاصة لم تمنح لأى قسم آخر من أقسام الامبراطورية . لقد أدركوا أن اليهود على استعداد للقتال حتى الموت للدفاع عن موقفهم . ها هنا شعب آمن بالحق . لقد كان ذلك كله بمثابة الصدمة .

المسيحيون الأوائل :

حدث نفس الشئ بالنسبة للمسيحيين الأوائل . لقد كانوا يهوداً ، جميعهم ، ولكنهم ذهبوا إلى نهاية المطاف ، واعتقدوا تماماً أن هذا الإله الحقيقى وحده قد أظهر يده - كلا ، كيانه كله - فى شخص يسوع الناصرى . لقد جاء الله ليفتش عن الجنس البشرى ويجذبنا إليه . لم يكن ذلك أسطورة أو رأياً ذا قيمة خاصة . لقد كان تاريخاً فعلياً وحقيقة جادة . بل فى الواقع ، كان أهم حقيقة فى العالم . لقد أوضحوا أنه هناك طريق واحد للتطهير من خطايا البشر ونقائصهم ، مملكة واحدة من الحب والإخلاص لله دعيت إليها جميع الأمم ، طريق واحد للقبول والاعتماد ليس على أى امتياز دينى أو إنجاز أخلاقى بل على مجرد الكرم الإلهى - كل ذلك قد أعلنوه بشجاعة غير هيابة فى مواجهة تعددية دينية تجعل من وضعنا الحالى أقل سوءاً .

لقد كانوا بالطبع غير محبوبين ، ولكن لو كانوا قد اختاروا اتجاهاً دينياً مقبولاً من الجماهير الخاضعة تحت لواء الامبراطورية ، لما تعرضوا للاضطهاد ، ولما ضايقهم أحد . لقد كان للرومان

أفكار متحررة عن الديانة . فعندما فتحوا بلدك ، اهتموا بالديانتين معـــــاً ، مثل الهندوس ، وذلك بأن يضيفوا إلهك الخاص بك إلى الآلهة الموجودة في معبد البانثيون أو يطلقوا عليه اسم إله من آلهتهم كما يفعل التعدديون العصريون بإلههم على اعتبار أنه يقوم بنفس المهمة . هذا ما رفض المسيحيون بإصرار أن يفعلوه . لقد كانوا مقتنعين أنهم على صواب ، ورفضوا الاستسلام . ولهذا السبب فُتحت أبواب الجحيم في وجه المسيحيين من تشهير واضطهاد قاس . ليس هناك شئ جديد يتعلق بالتعددية : الشئ الوحيد الجديد هو رغبة بعض رجال الكنيسة في الخضوع لها.

بالطبع ، إن لها جاذبية متزايدة هذه الأيام . فلدينا وعى عالمي وفهم جديد للعقائد الأخرى ، وهذا صحيح وصائب . ولكن هذا لا يمنعنا من أن نعلن بحزم وبلطف أن التعددية لن تصلح ، لأسباب عديدة .

التعددية تقدم افتراضات غريبة :

تقدم التعددية افتراضات غريبة جداً ، فهى تزعم أن المسيحيين مغرورون ويريدون أن يفرضوا آراءهم على الآخرين . ليس الأمر هكذا ، فالمسيحيون يؤمنون أنهم وجدوا كنزاً ويريدون أن يشتركوا مع الآخرين فيه ، بتواضع ولكن بثقة . وهذا شئ مختلف كثيراً . وهى تزعم **أن المسيحيين يعتقدون أنهم يعرفون كل شئ وماعداهم على خطأ** . لا يؤمن مسيحى عاقل بذلك . إنهم يدركون جيداً أنهم يعرفون القليل - ولكنهم يعرفون يســوع الذى استودعوا حياتهم بين يديه . إنهم لا يتصورون ولو للحظة واحدة أنهم يحتكرون الحقيقة . إنهم يعرفون أن هناك شيئاً صالحاً فى كل عقيدة أو أيدلوجية تقريباً - وإلا ما كانت سيطرت على قلوب البشر . والمسيحيون يريدون تتبع ذلك الصلاح حتى مصدره فى الله الذى أوجد هذا الصلاح ، وقد أعلن عن نفسه إعلاناً كاملاً فى يسوع المسيح .

وهناك زعم آخر **بأن جميع الديانات تؤدى إلى الله** : يبدو هذا القول متحرراً ولكنه قول باطل أيضاً . كيف يمكن لجميع الديانات أن تؤدى إلى الله فى حين أن بعضها لا يؤمن بإله شخصى على الإطلاق ، كالبوذية ، بينما تؤمن بعض الديانات الأخرى بآلهة كثيرة مثل الاعتقاد بأن

الأرواح تحل فى الجماد والنبات والحيوان وأنها تؤثر فى البشر ؟ وتؤمن بعض الديانات بإله غامض الذى لا يهمه أى شئ فيما يتعلق بالعالم الذى أوجده ، ويعتقد البعض الآخر بإله منتقم يتربص بنا ، بينما تعلن المسيحية أن الله إله شخصى محب ويسرع لنجدتنا . إن فكرة « الله » مختلفة فى هذه الآراء المتصارعة .

من الافتراضات الغريبة فى التعددية أن الإخلاص هو كل ما تحتاجه فقط . آمن بإخلاص وكل شئ سيكون على ما يرام . يا لها من عقيدة انتهازية تماماً ! نحن لا نفكر فى تطبيقها فى الرياضة والسياسة أو أى مجال آخر من مجالات الحياة . فقد اعتقد مخلصاً أن زجاجة الويسكى مفيدة لى وأتصرف بناء على هذا الاعتقاد فإن هذا لا يمنع تليف الكبد . فالإخلاص ليس بديلاً عن الحقيقة . يمكننا أن نكون مخلصين ومخطئين فى نفس الوقت .

أى افتراضات أخرى زائفة ؟ إنه الافتراض القائل إن جميع الاختبارات الدينية واحدة فى الجوهر . من يقول بذلك ؟ الغربى المتحرر بالطبع . ولكن اختبار الشخص الذى يعبد الأرواح الشريرة ويحاول استرضاؤها لا يمكن أن يتساوى مع اختبار الهندوسى الذى يتأمل فى الحقيقة . وإذا سألت الذين اعتنقوا المسيحية من الديانات الأخرى فسوف يخبرونك ذلك بعبارات واثقة بأن الاختبار الذى حصلوا عليه عن الله كمسيحيين يختلف تماماً عن أى شئ اختبروه فى ظل البيئة التى نشأوا فيها ، خاصة فى مجالات معرفة الله شخصياً ، والحصول على تأكيد بالغفران ، والفرح الداخلى ، والسلام الذى لا يمكن إلا أن يُنسب للروح القدس الذى قبلوه داخلهم .

وأنت تعلم أنه من التعالى منا نحن الغربيين أن نقول إن الديانات الأخرى واحدة أو إنها تسير فى نفس الاتجاه . فهل أتباع الشيطان يسيرون فى نفس الاتجاه مع الأم تريزا ؟ . إن الغربيين المتحررين هم الذين يقولون لنا إن جميع الديانات تسير فى نفس الاتجاه ، وليس أتباع هذه الديانات أنفسهم – ولا يسوع الناصرى . لقد كانت حياته تدل عن تواضع شديد – ولكن أقواله كانت مهيبة تدعو للجدل والاحترام . لقد أعلن أنه يأتى بالله إلى مسرح التاريخ البشرى ، وليس أقل من ذلك . وهذا قول يختلف تماماً عن قول أى مؤسس لدين آخر . فإما أن يكون هذا القول صائباً أو خاطئاً ؟

التعددية عديمة النفع من الناحية الأخلاقية :

لدى مشكلة أخرى مع هذه التعددية الحديثة ، فهى لا تصلح من الناحية الأخلاقية . إنها لا تقدم لنا أى مساعدة فى الصراع الأخلاقى . إن التعددية فى العقيدة والنسبية فى الأخلاق يسيران جنباً إلى جنب . والنتيجة مدمرة . فلنتأمل فى جرائم القتل والاغتصاب الذى تقوم به العصابات وأتباع الشيطان . فكّر فى الأرامل اللواتى كن يحرقن أحياء فى أثناء حرق جثث أزواجهن ، وقد كان ذلك طقساً يمارسه الهندوس حتى أوقف البريطانيون ممارسة ذلك الطقس . إن التعددية تقبل التباين الكبير فى المستويات الأخلاقية والعقائد الدينية الراهنة . ووفقاً لهذا المذهب ، فإنك تلتقط وتختار وأى شئ يصلح ، فكل شئ على ما يرام ، إنه لا يقدم لك نجماً هادياً . أو قوة أخلاقية .

التعددية تخشى الحقيقة :

ولكن أسوأ ما فى الأمر ، أن التعددية حساسة حساسية بالغة تجاه قضية الحقيقة . فالمؤمن الحقيقى يُعد خطراً عليها لأنه يقول إنه على صواب . ولكن ماذا يحدث لو كان على صواب بالفعل ؟ قال جاليليو إنه على صواب ولكنه تعرض لوقت عصيب بسبب ذلك على يد المؤسسة الدينية فى عصره . ولكنه كان على صواب ، والجميع يعرفون ذلك الآن . فماذا يكون موقفك إذا كان المسيحيون على صواب ؟ وإذا كان هناك إله حى صنع العالم وكل ما فيه ؟ وإذا كان يحبنا كثيراً حتى إنه جاء ليقدم لنا نفسه كإنسان عاش بيننا ؟ وإذا كان قد أخذ على عاتقه أن يحمل عنا وزر خطيتنا ؟ وإذا كان يقدم قوة حياته المقامة لأى جماعة من الناس من أى دين دون أن يقبلها أحد ؟ هناك قدر كبير من الحقيقة فى السؤال المقدم هنا ، وهى لن تبرح عنا . إنها لم تبرح عن بيلاطس البنطى أيضاً ، عندما وقف يسوع الذى قال إنه صورة مجسمة للحق . فسأل الوالى: « ما هو الحق ؟ » ، لم يتلق إجابة . لأن الحق كان أمامه . إن لدى شعور غير مريح بأن بيلاطس كان يعرف الحقيقة . إنه نظيرنا ، كان عليه أن يتخذ قراراً بشأنه . إنه لم يستطع أن يتجنب الاختيار وجميعنا نعرف ما قرره .

ما الذى سيكون عليه قرارك ؟ فى عصر ما بعد الحداثة هذا ، نشك جميعنا فى مطالب الحق ، وقد تحررنا من أوهام النظم والأيدلوجيات الماضية . إننا نتقبل كل ما يقدم العون الحقيقى للبشر فى حياتهم اليومية . **إن يسوع يفعل ذلك !** .

ونحن نقبل القصص ، وبنوع خاص القصص اليومية . حسناً ، فالمسيحى لديه قصة ليرويها عن التغيير الذى أجراه يسوع فى حياته . وبالإضافة لذلك ، كما رأينا من قبل فهى ليست مجرد قصتى ، لأن قصتى مرتبطة بقصته ، أعظم قصة قيلت . إن هذه القصة تعطى معنى للجنس البشرى ، وبيئتنا وأخلاقنا وجوعنا لعلاقة دائمة . ربما كنا مخطئين حين استبعدنا فكرة الحقيقة من عقولنا ؟ ربما يكون يسوع هو الحق ليس لى فقط بل للآخرين فى كل أنحاء العالم ؟ ربما تكون هذه خطوة أكبر من أن تتخذها الآن . ولكن فى كل الأحوال ، فإن ما يقدمه شديد الجاذبية . ربما يتوجب علينا أن نلقى نظرة الشك على المادية والنسبية والتعددية التى تحيط بنا من كل جانب ، ونرى حقيقة هذه المبادئ فى مقابل البديل : الإنسان الذى يقول إنه يأتى إلينا بالله ، الشخص الذى يعطينا كل شئ بغنى للتمتع ، ولكنه يخبرنا أننا إذا كنا نعيش لأجل الممتلكات فنحن حمقى . الشخص الذى يأتى بالحقيقة لتاريخنا وحياتنا . إنه الشخص الذى تختفى أمامه كل الأيدلوجيات المعادية كاختفاء ضوء الشموع أمام ضياء الفجر . إن كان هذا هو الحال ، يكون من المخيف أن نفقد هذا الضياء . إنه يستحق عناء البحث .

الفصول الثلاثة التالية سوف تواصل هذا البحث . وإنه بحث سوف لا يضنينا . إن ضغوط الحياة العصرية ، والشوق للحرية والجوع الشامل للحب سوف تعطينا كل المؤشرات التى نحتاجها إذا كان لابد لنا أن نختار اختياراً واعياً – أن نتبع يسوع أو نعطيه ظهورنا .

الفصل السابع
الضغوط

منذ بضعة أيام مضت وجدت نفسي أتحدث عن الإيمان المسيحي على مائدة عشاء في برسلز . فسألت مضيفيَّ « ما هو الموضوع الأقرب إلى قلوب الناس ؟ » فأجابوا قائلين : « الضغوط » . ولذا قررت أن أتحدث عن الضغوط لحشد كبير من الناس ، عدد كبير منهم يحتل وظائف بارزة في حلف شمال الأطلنطي أو السوق الأوروبية المشتركة . كان ذلك مفاجأة لي ، ولكنه كان يبدو أنه الموضوع المناسب . وضع أحدهم في يدي الجريدة المحلية التي صدرت في ذلك اليوم ، ووجدت ما لا يقل عن مقالتين عن هذا الموضوع : وكان كاتب إحداهما على مائدة العشاء .

أسباب الضغوط

إن أسباب الضغوط قد تتعاظم في الحياة المليئة بالضغوط في بلدتي ، ولكنها تتشابه مع الضغوط التي تهاجمنا جميعاً . ويأتي العمل في المقدمة . ففي عصر يتزايد فيه عدد العاطلين ، فعلى الذين يعملون أن يبذلوا جهداً أكبر في العمل . والمديرون يعملون في الغالب ساعتين قبل الوقت الذي اعتادوا العمل فيه . والخوف من البطالة والمرض يأتيان في مركز متقدم في القائمة ، وكذلك التعاسة الزوجية والتوتر الناتج عن الانتقال إلى منزل آخر في مكان آخر أو تغيير الوظيفة .

والتوتر يواجه أولئك الذين لا يزالون طلبة . ففي الوقت الحالي يواجهون مشاكل كثيرة عليهم التعامل معها . أمامي مقالة من إحدى الجرائد المحلية تلقي الضوء على الحقيقة المذهلة أن واحداً من كل ثلاثة طلبة في جامعة كمبردج ممن يطلبون العون من المستشارين الجامعيين يفكر جدياً في

الانتحار . إن الضغوط المتزايدة ، الشخصية والمالية هى المسئولة عن ذلك . والواقع يقول ، إن الانتحار يأتى بعد حوادث الطرق كالسبب الرئيسى للوفيات بين الشباب .

ويأتى بعض هذا التوتر من نوعية تكويننا . فإن كنا من النوع البسيط ، الذى يكتفى بوظيفته أو دوره فى المجتمع ، وكنا من النوع الذى لا يميل للمنافسة بنوع خاص ، وبالتالى يميل لعدم الاندفاع وأيضاً البطء فى تناوله للطعام والمشى والحديث ، فنحن من غير المحتمل أن يصيبنا التوتر . فالشخص المحب للتنافس ، والسريع القلق ، والطموح الذى يحاول أن يفعل أشياء كثيرة مرة واحدة ، فتجده مندفعاً دائماً ، نافد الصبر عند الانتظار ، يتوقع ما سيقوله الآخرون . وسريع فى كل تصرفاته - إن ذلك النوع من الأشخاص ، أشد احتمالاً للتعرض لمخاطر الضغوط . ولكن كما نعلم جميعاً ، هناك أكثر من ذلك . فالأشياء التى تحدث لنا هامة تماماً كنوعية شخصياتنا فى إحداث التوتر . فالإصابة الخطيرة ، وموت شخص عزيز ، وانهيار علاقة ، وتغيير الوظيفة أو الإقامة ، والمشاكل العائلية ، والديون من بين أشد الأحداث إثارة للتوتر .

ومن أكثر الأسباب شيوعاً لإحداث التوتر فى حياة الطلبة الجامعيين هو الضغط الناتج عن التفوق أكاديمياً أو رياضياً ، والألم الذى ينتج إذا لم يحدث ذلك . ويعتبر وقت الامتحانات وقتاً حاسماً فى إحداث التوتر ، ومن المآسى وقد يؤدى هذا التوتر لحدوث بعض حالات الانتحار كل عام . ثم هناك الاشتياق لعلاقة أوثق مع شريك الحياة - وكلما تعمقت هذه العلاقة فإن انهيار العلاقة يزيد الطين بلة كما يحدث فى معظم الأحيان . والديون مشكلة متزايدة . ولا ينطبق ذلك على المجتمع ككل ، بل إنه قد تغلغل أيضاً فى عالم الطلبة . فمع انقطاع المنح التى تقدم للطلبة ، يكون من الصعب بمكان دفع الإيجار أو الحصول على وجبات رخيصة الثمن ، ويتورط عدد كبير من الطلبة فى الديون ، التى يخافون ألا يستطيعوا سدادها على مدى سنوات طويلة . وهناك القلق بشأن سوق الوظائف . فالبطالة منتشرة ، وعدد كبير من الخريجين فى المملكة المتحدة لا يحصلون على وظيفة عند الانتهاء من الدراسة الجامعية . وليس لديهم بالتأكيد فرص عديدة للاختيار ، كما كان الحال عندما كنت طالباً . ويأتى وراء كل ذلك ، التوتر الناتج عن بعض الصدمات التى حدثت فى الماضى والتى تظل غير معروفة ولكنها مدمرة بالرغم من ذلك .

ربما يكون ذلك بسبب التعرض للاعتداء الجنسى فى مقتبل حياتنا ، أو الاستسلام لعادة نشعر بالخجل إزائها ، أو بسبب تصرف معين نشعر بالندم بشدة لأجله ، ولا نعرف كيف نتصرف بشأنه . هذا أحد أسباب التوتر . فقد أُجرى مسح للطلبة مؤخراً عن : « ما هو أكثر ما يضايقك بشأن صباح اليوم التالى لليلة أفرطت فيها فى احتساء الخمور ؟ » . وقد أجاب أكثر من ٤١٪ من الذين وجه إليهم السؤال بالإجابة التالية : « الشخص الذى أجد نفسى معه فى الفراش فى صباح اليوم التالى عند الاستيقاظ » .

بالطبع هناك العديد من الاقتراحات بشأن كيفية التعامل مع الضغوط . فالجريدة التى أشرت إليها فى برسلز نصحت بما يأتى : توقف عن الحديث وأطلق النكات ، تناول كوباً من الشاى ، وسيجارة وقطعة من الشيكولاتة ، استمع إلى الموسيقى ، شاهد التليفزيون أو اشرب كأساً من الخمر . وهناك اقتراحات أخرى من بينها مضاعفة إمكانياتك البشرية ، وممارسة التأمل بانتظام ، والسعى فى الحصول على ممتلكات أكثر أو تحقيق إنجازات أكبر واللجوء إلى المخدرات والمسكر . ولا شئ من كل ذلك يجدى حقاً .

الشخص الذى لم يكن يعرف القلق

ولكن كان هناك شخص كان يعيش فى سلام تام ، وكان اسمه يسوع ، ففى وسط العاصفة التى كانت على وشك إغراق القارب الذى كان فيه ، نجده فى سلام تام . وعندما أحاط به جماعة من الناس ثائرين وهم يطالبون بدمه ، كان السلام يخيم عليه بالمثل . وعندما كاد الناس يسحقونه طالبين الشفاء لبى احتياجاتهم جميعاً ... ثم استيقظ فى صباح اليوم التالى باكراً ليصلى . وعندما واجه الحاكم الرومانى الذى كان له سلطان أن يحييه أو يميته ، فإن سلامه العميق قد كشف الاضطراب الذى كان يعتمل فى صدر بيلاطس . إنه لسلام مذهل . لم يكن فى عجلة من أمره يوماً ما ، ولم يكن متأخراً أيضاً بنفس القدر . لم يفقد رباطة جأشه مهما كان نوع الإثارة . ولكن فى ثلاث سنوات ، فعل ما يكفى لجعل ثلث الجنس البشرى يرفع راية المسيحية عالية بعد ذلك بألفى سنة ! لقد كان يتمتع بسلام داخلى مهما كانت الضغوط .

والشئ العجيب أنه أراد لتابعيه أن يحصلوا على سلامه لأنفسهم . فقد قال : « سلامى أترك لكم ، سلامى أعطيكم . ليس كما يعطى العالم أعطيكم أنا . لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب » (يو ١٤ : ٢٧) . يقول يسوع إن السلام الحقيقى ليس شيئاً يمكن أن نتعلمه أو نعمل لأجله . إنه شئ يعطينا إياه . وهو عطية جذابة إلى حد كبير . فهو يقول لنا إن سلامه يختلف عما يعطيه العالم . كما أن سلام العالم هذا ، ليس عميق الجذور ، فهو يتوقف على ظروفنا . ولكن ما يقدمه يسوع هو سلام لا يتوقف على ظروفنا ، إنه شئ داخلى لا يمكن لأحد أن ينزعه منا إلا إذا سمحنا نحن بذلك . كيف يمكن أن نكتشفه لأنفسنا ؟ .

التوتر بسبب الندم على خطايا ماضية

دعنا نبدأ بأصعب الجوانب أولاً ، إننا بحاجة للغفران الإلهى . ذلك هو لب المشكلة . وحتى نحصل على ذلك الغفران ، سنكون معرَّضين لاحتمال التوتر ليطل برأسه القبيح من آن لآخر . لقد خلقنا لنكون فى تناغم مع الله . وعندما نكون بعيدين عن هذا التناغم ، ينشأ هذا التوتر . فكل ما نندم عليه ولكننا نعجز عن تغييره يأتى ليخنقنا . قد ننجح فى إخفائه عن الأعين لسنوات طويلة ، ولكنه حتماً سوف يخرج ليدمر حياتنا . إن عدداً كبيراً من القتلة يذهبون بين آن وآخر إلى قسم البوليس ليسلّموا أنفسهم ، فهم لا يستطيعون تحمل عبء التوتر فى داخلهم إلى ما لا نهاية . لقد لاحظت مثالاً على ذلك فى « جريدة ادفتون » فى كندا الصادرة يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٩٣ . وكان العنوان الرئيسى للجريدة يقول : «كانت تعيش أكذوبة كبرى » ، وأما تفاصيل الخبر فكان كالتالى : « كانت هاربة من القانون لمدة ٢٣ سنة حتى أدركت أنها لا تستطيع أن تهرب من نفسها » .كانت هذه كاثرين آن باور ، الطالبة الثورية فى الستينات والتى كانت تقود السيارة التى نجحت فى الهروب بها من مكان الجريمة حيث تمت حادثة السرقة الخطيرة لأحد البنوك . كان زميلها قد قتل أحد رجال البوليس الذى كان والداً لتسعة أطفال . فلا عجب إن كانت على رأس المطلوبين فى قسم المباحث الفيدرالية لسنوات عديدة . لقد هربت إلى كندا وكانت تنتقل من مكان إلى آخر وتغير اسمها بانتظام . لقد عاشت لمدة عشر سنوات تقريباً فى ولاية

اوريجون ، وكانت تُعرف باسم أليس فنرنجر ، طاهية محترفة وزوجة وأم . وفى يوم ما عقدت حفلة وداع لصديقاتها وأصدقائها ، وأخبرتهم فيها أنها ذهبت إلى « مناطق مجهولة » وأخبرتهم قصتها . قالت لهم إنها لا تستطيع أن تعيش مع شعورها بالذنب ، ثم سلمت نفسها للبوليس فى بوسطن . كان التسليم مثيراً لكثير من العواطف الجياشة . فقد كتبت تقول : « بعد أن اختبرت الحياة بدون تلك الغشاوة التى كانت فوق عينيَّ . فإنى أتعلم أن أعيش الآن فى صراحة وصدق بدلاً من العار والاختباء عن أعين الناس » .

كلنا نعرف شيئاً عن مثل هذا الندم . هناك طريق واحد فقط فى العالم كله ، يمكن أن يجعل الماضى المعوج مستقيماً . إنه فوق صليب ذلك الشخص العجيب الذى كان صورة مجسمة للسلام . فهناك جعل نفسه طوعاً مسئولاً عن كل شرور العالم . فبطريقة لا يمكن لأى شخص أن يفهمها ، فهذا الإله الذى ظهر فى صورة إنسان قد حمل ذنب كل العالم الذى ضلَّ وعوَّج المستقيم . لقد حمل ذلك العبء الثقيل لذنوبنا وعارنا ثم صاح « لقد أكمل » ، لقد تم المهمة . ومن ذلك الوقت فصاعداً ، ثم الضغط على مفتاح الإلغاء فى قائمة الكمبيوتر الإلهى لخطاياك وخطاياى ، لقد مُحيت . إن هذا المحو للخطية يجلب تحرراً من التوتر والقلق يصعب تصديقه . « من هو إله مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب ؟ ... فإنه يسر بالرأفة » (مى ٧ : ١٨) . إنه يشبه المد الذى يأتى ويزيل كل الأقذار التى على شاطئ البحر ، تاركة إياه جديداً ونظيفاً . نعم إن الغفران الإلهى أعجب جرعة فى العالم كله .

وقد تتذمر قائلاً : « إن هؤلاء المسيحيين يتحدثون دائماً عن الماضى ، إنى مهتم بالحاضر » حسناً ، دعنا نلقى نظرة على بعض التغيير الذى يمكن ليسوع المسيح أن يجريه فيما يتعلق بشأن مشكلاتنا الحالية .

التوتر بسبب الظروف

خذ على سبيل المثال ، التوتر الذى ينتج من مواجهة الأعباء الثقيلة على كواهلنا . إن السلام يأتى عندما نعرف أنه معنا دائماً ، وأنه مستعد أن يسكب سلامه عند اضطرابنا . إن المسيحية

لا تتحدث فقط عن الصليب حيث مات المسيح لأجلنا ، إنها تتحدث أيضاً عن القيامة التى جعلته يأتى ويعيش معنا يشاركنا حياتنا . وما أن نرحب به ، حتى يجلب سلامه ، وهو سلام لا يتوقف على ظروفنا معه . إن مهمتنا أن نتجه إليه ونطلب منه ذلك السلام برغم كل ما يضايقنا.

منذ بضع سنوات مضت ، اجتزت بعض الصعاب والظروف الضاغطة . فلم يمض وقت طويل حتى حرمت من والدى ونُقلت من وظيفتى ، تاركاً ورائى بعض الأصدقاء الأوفياء المحبين لى . وانتقلت من بيتى وانتقلت إلى بلد آخر عبر المحيط الأطلسى . وانفصلت عن أبنائى الكبار ، وقد كان أحدهم لا يزال فى الجامعة . وكان علىَّ أن أتخلى عن كلبى . وبدأت العيش فى بلد جديد فى بيت جديد وفى مكان لا أعرف فيه أحداً . وهذا يكفى ليدفعنى بعيداً إلى آخر مراحل التوتر . ولكن لم يحدث معى ذلك بالمرة . لقد أشركت الرب معى فى كل الأمور ، ووجدت أن سلامه كان حقيقة ، وليس مجرد كلام . « ذو الرأى الممكن تحفظه سالماً سالماً لأنه عليك متوكل » (إش ٢٦ : ٣) . فالسلام هو اتجاه عقلى بالفعل . إنه ينبع من التصميم على أن تشرك الرب معك فى أى أزمة أو مشكلة تمر بها لأنه موجود معك « الله ملجأ لنا وقوة ، عوناً فى الضيقات وجد شديداً . كفوا واعلموا أنى أنا الله » (مز ٤٦ : ١ و ١٠) . إن ذلك لا يزيل الكارثة عادة ولكنه يأتى بالسلام العميق لك ولى حتى نستطيع التعامل معها .

إنى بالتأكيد وجدت عوناً كبيراً عندما كنت طالباً فى مواجهة الامتحانات الصعبة . فمعرفتى بأنه يمكننى أن أعهد لله بالنتيجة التى ستكون لصالحى فى النهاية ، جلب إحساساً عميقاً بالسلام . منذ عدة سنين مضت كنت طالباً فى اكسفورد ومنضماً لكنيسة كبيرة بها عدد كبير من الطلبة الأعضاء فى الكنيسة . وكان المفروض أن أرتدى زياً رسمياً من اللونين الأبيض والأسود أثناء تأدية امتحاناتى النهائية . وهذا الزى كان يجعلنى لافتاً للنظر ، ولا يعمل على إشاعة الهدوء فى نفسى ! ولهذا كان هذا الوقت عصيباً بالنسبة لى ! ولكنى لاحظت مراراً وتكراراً أن مائدة العشاء الربانى التى كانت فى وسط الأسبوع يلتف حولها عدد كبير من الطلبة يرتدون هذه الحلة الغريبة الشكل ، وهم يحمدون الله مبتهجين فى سلام ، ثم يتناولون شيئاً من الطعام فى طريقهم لقاعات الامتحان . ونفس الشئ ينطبق على سوق العمل . فالخوف من البطالة يشكل

تهديداً مخيفاً . فكيف يكون الحال لو لم أجد عملاً ؟ وماذا يحدث لو لم أستطع سداد أقساط الديون المتراكمة ؟ كانت هذه تُعد أفكاراً مرعبة . والآن لا أريد أن أبالغ . ولكن الكتاب المقدس واضح فى أن الله لديه خطة لحياتنا . لقد أعد لنا مسالك صالحة لنسلك فيها . قد تمر بفترة من الكساد المادى ولكن الخطط الإلهية لا تحطمها فترة من الكساد . ولذا كان يجب علىَّ أن أثق فيه حتى ولو كنت أواجه شبح البطالة . لقد تعامل مع أعداد لا حصر لها من البشر قبلى . وهو يعرف كيف يعتنى بأولاده . « توكل على الرب بكل قلبك وعلى فهمك لا تعتمد . فى كل طرقك اعرفه وهو يقوم سبلك » (أم ٣ : ٥ و ٦) . هذا ما ينصح به الكتاب الصالح ، وقد رأيت ذلك بنفسى فى حياة الكثيرين .

نحن نستهلك قدراً كبيراً من طاقتنا فى القلق بشأن أمور كثيرة لا نستطيع تغييرها . ما نستطيع أن نغيره هو موقفنا ، بألا أعتمد على فهمى وقدرتى على الاستيعاب ولكن بأن أسلم كل شئ للرب ، وأثق أنه يجرى ما يحلو له . وممكن أن يحدث هذا بطرق عديدة . أعمل مع صديق اقتنع أن يترك وظيفته إلى عمل مختلف تماماً عن طريق مكالمة تليفونية . آخرون يرون إعلاناً فى الجريدة . أتذكر صديقاً أصبح مديراً لمزرعة كنتيجة لمجرد قراءة إعلان صغير قرأه فى الحمّام ! وقد أثبتت الوظيفة أنها لم تكن ملائمة له فقط حتى أنه أظهر تفوقاً فى أدائها ولكنها أتاحت الفرصة لظهور مواهب رعوية ملحوظة .

التوتر بسبب الديون

الديون سبب قوى آخر للتوتر . هل معرفة المسيح تفيد فى هذا المجال ؟ إن صديقى روب بارسونز يقدم خدمة المشورة لمن يعانون من الديون فى كارديف . لقد اختبر هو نفسه ألم الوقوع فى فخ الديون . والآن فهو يساعد الآخرين لحل مشاكلهم . إنه يدرك جيداً أنه ليس الفقر فقط ولكن الالتزام الزائد عن الحد يمكن أن يكونا سبباً فى الديون . وما أن تقع فى الدين ، حتى تحاط بأسماك القرش تريد أن تلتهمك من كل ناحية . إنه يحكى عن خطاب وصله من أحد البنوك الكبرى ، فلأنه من « العملاء المتميزين » فقد خصصوا له بسخاء سلفة « بسعر فائدة مغر »

تبلغ ٢٠٪ . وقد كتب ساخراً :« متى كان لى مثل هؤلاء الأصدقاء فأنا لست بحاجة لأعداء . فالجنون يمكن تلخيصه فى الإعلان الذى ظهر فى جريدة قومية » « الآن يمكنك أن تستعير بما فيه الكفاية للتخلص تماماً من ديونك » . فى عصر بطاقات الائتمان هذه حين يكون البلاستيك سبباً فى راحة أكثر من المبالغ النقدية ، يسهل كثيراً الوقوع فى شرك الديون » .

ولكن الشئ الذى أذهلنى أكثر من أى شئ آخر فى مقالة « روب » هذه (التجديد ، يناير عام ١٩٩٥) كان أول رد فعل له حين اكتشف أنه مديون . لقد ركع على ركبتيه وصرح لله إن أخطاءه الشخصية أوقعته فى الدوامة التى يعانى منها . وطلب الصفح من الله والحكمة والشجاعة ، ثم انطلق يصحح الموقف . لقد استغرق تعامله مع المشكلة بعض الوقت ، ولكن سلام الله قد غمره فى الحال ، هذا ما يفعله المسيح فى مثل هذه المواقف العملية فى الحياة العصرية .

التوتر بسبب الآمال المحبطة

ماذا بشأن القلق الذى يأتى بسبب فشلنا فى تحقيق أهدافنا ، فى الرياضة مثلاً أو الحياة الجامعية أو عملنا ؟ مرة أخرى ، فوجود المسيح الحى الذى هو دائماً معنا ، والذى له غرض من حياتنا ، يغير كثيراً من موقفنا . إنى أعتقد أنى أستطيع أن أقول بأمانة إنى عرفت حقيقة سلامه فى هذه المواقف الثلاثة جميعها - الرياضة ، والحياة الجامعية ، والعمل .

أتذكر فشلى فى تحقيق النصر فى أحد الأعوام فى جامعة كمبردج عنما كنت ضمن أعضاء فريق لعبة التحطيب وهُزمت فى المباراة الأخيرة أمام منافسى من جامعة أكسفورد . كنت أشعر بالإثارة ، لدرجة أنى كنت أحلم بهزيمة كابتن إنجلترا فى تلك الليلة ! ولكن كان عندى شئ أفضل من الحصول على النصر فى لعبة رياضية ، كان لدى « سلام الله الذى يفوق كل عقل » . لقد دهش الناس لأنى لم أشعر بالاكتئاب بسبب الهزيمة . لقد كان سلام الله يحفظ قلبى وعقلى كما عبر عن ذلك الرسول بولس ببراعة .

أو أتذكر اليوم حين سمعت أنه فى الجزء الأول من امتحاناتى للحصول على درجتى العلمية ،

إنه على الرغم من اقتـرابى من المركـز الأول ، تناقش الممـتـحنون فى ذلك لمدة سـاعـة ، وقـرروا إعطائى المركز الثانى . ولكن هذا لم يحطمنى . كان سلام الله يغمر حياتى . وعرفت أنه لابد من وجود قصد إلهى لذلك . وفعلاً ، كان لله قصد أن يجعلنى أتضع حتى يستخدمنى الله كما أراد لى . فقد قمت بقيادة الاتحاد المسيحى فى الجامعة ، وهذا ، بدوره ، أثبت أنه ذو فائدة لا تقدر بالنسبة لحياتى المستقبلية .

وفى وقت لاحق من حيـاتى فقدت فـرصاً للعـمل عـدة مرات وكـان بينى وبين الحصول على الوظيـفـة شعرة واحدة . فلمـاذا حدث ذلك ؟ كنت أعلم أن الله هو المتحكم فى ظروفى ، وطلبت سلامه ، وقبلت ذلك بنفس راضية .

وصفة للحصول على السلام

أشرت من قبل إلى فقرة رائعة فى رسالة بولس الرسول إلى المسيحيين فى فيلبى . كان بولس يكتب من السجن ، وبدلاً من أن تكون رسالته مليئة بالتذمر والشكوى ، كانت مليئة بالفرح .

« افرحوا فى الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا . ليكن حلمكم معـروفـاً عند جمـيع الناس . الرب قـريب . لا تهتـمــوا بشئ بل فى كـل شئ بالصلاة والدعـاء مع الشكر لتـعلم طلبـاتكم لدى الله . وسلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم (المشاعر) وأفكاركم (العقل) فى المسيح يسوع » (٤ : ٤ - ٧) .

نرى هنا هذا الرجل ملقى به فى السجن متوقعاً الموت ولكنه فى سلام دائم ، إنه يعرف أن الله بيده كل شئ ، ويخبرنا أن ذلك يعنى الكثير . أولاً ، فهو يدرك أن القلق خطأ يُرتكب ضد مثل هذا الآب السماوى . ولذلك فهو يهاجمه بالقول :« لا تهتموا بشئ » ، وهو ليس خطأ فقط ، ولكنه عناء . هل يمكن للقلق أن يضيف يوماً واحداً إلى حياتنا أو بوصة واحدة إلى قامتنا ؟ . ثانيـاً ، فهو يلقى قلقه ، كالحمل الثقيل على الرب . ثالثـاً ، فهـو يصلى لأجل مشـاكله وبدلاً من أن يأخذها معه ، فهو يتركها بحكمة هناك . ماذا يجد نتيجة لذلك . يجد أن سلام الله يحفظ أفكاره الهائجة ومشاعره القلقة ، كلما كان أكثر ارتباطاً بيسوع . وإذ يواجه بالتوتر والضغوط ،

عليه أن يختار . فإما أن يتجه للخوف أو للصلاة . إنه يختار الصلاة ، ويحصل على السلام. حوِّل همومك إلى صلوات : إنها طريقة رائعة لتخفيف حدة التوتر .

ووجدت أن ذلك صحيح في الأزمات الصحية الشديدة .كنت أقود عملاً مرسلياً في « دربان » وفجأة أُصبت بالالتهاب السحائي ونُقلت إلى المستشفى . وكنت غائباً عن الوعي في الأيام الأولى ، ولكني كنت أشعر بسلام الرب حولي يحيط بي كثوب يشيع فيَّ الدفء . كنا نتساءل عن كيفية توصيل الرسالة إلى من بداخل ذلك المستشفى أثناء عملي المرسلي ، والآن قد أصبحت أنا الإجابة المدهشة لصلواتنا ! فقد قادني وجودي بالمستشفى للوصول إلى عدة أشخاص ليكتشفوا يسوع مخلصاً شخصياً لحياتهم ، وبخاصة بعض الأطباء والممرضات الذين كانوا يهتمون بي اهتماماً خاصاً .

عثر صديقي على هذه العبارة المثيرة في كتاب إداري عن التوتر « سوف أقدم لك الآن معلومة هامة جداً - كل شخص يحتاج إلى مستمع دون قيد أو شرط لكي يريحه من همومه . ولسوء الحظ لا يوجد إنسان يمكن أن يستمع إليك دون قيد أو شرط . ولذا فهذا ما أنصح به . تحدث إلى حيوانك المدلل ! » .

على أي حال يمكن أن تختار هذه الوصفة إذا أردت ، فهي أفضل من المخدرات والمسكرات ، ولكن هناك بديلاً : إنه السلام الذي يعطيه يسوع للذين يثقون فيه . إن رئيس السلام نفسه يدعونا قائلاً : « تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال ، فتجدوا راحة لنفوسكم . احملوا نيري عليكم وتعلموا مني فتجدوا راحة لنفوسكم » (مت ١١ : ٢٨ و ٢٩) . إن هذا النوع من السلام ، لا يمكن لأي ظرف أو لأي إنسان أن ينتزعه منك . ألم يعد يسوع بالقول : « سلامي أترك لكم ، سلامي أعطيكم ؟ » . لقد كان يقصد ذلك بالفعل .

الفصل الثامن

الحريـــــة

إن رغبة الإنسان ليكون حراً هى رغبة بشرية جوهرية . إنها إحدى العلامات البارزة فى مسيرة التاريخ . فأنت ترى ذلك فى نوبات غضب الأطفال الصغار ، وفى استقلالية المراهقين وتطرف بعض الجماعات . وهى تتضح من ابتهاج الشعوب التى تتحرر من الحكم الاستعمارى وانهيار الشيوعية والحفلات المصاحبة لنجاح السود فى انتخابات جنوب أفريقيا . وما أن تقترح عودة « القانون » إلى مبادئ الأخلاق ، « والاستعمار » إلى العلاقات الأجنبية ، وقيادة الرجل فى العائلة ، و « الرقابة » على الأفلام ، حتى تثير ردود فعل غاضبة . والحرية من أكثر الهبات التى يعتز بها الجنس البشرى . إنها هبة لا يمكن حرمان البشر منها . إنها أفضل من كل نبيذ العالم .

المسيحية والحرية

ما الذى يجب على المسيحية أن تقوله عن هذه الرغبة فى الحرية ؟ قد يكون لك العذر فى أن تعتقد أن المسيحية لم تقل سوى القليل بشأن الحرية . إذا نظرنا للكنائس التقليدية ، فهناك قدر قليل من الحرية فى شكل العبادة - فهى مُملة وتدار دائماً من المنبر . وليس هناك حرية فى أنماطها السلوكية - فهى أشبه ما تكون بنظام من الأوامر والنواهى بالاستناد إلى المحظورات الإلهية . وفى المدارس والجامعات ، فالجماعات المسيحية لا تتميز دائماً بالحرية المرحة : إنهم يرتلون الترانيم ويحتفظون بالطهارة المظهرية .. ومن يريد أن ينضم لهؤلاء ؟ .

من الأمور المحزنة أن تبدو الكنائس والجماعات المسيحية فى هذا الشكل . ولكن علىَّ أن أقر

بأنها غالباً تبدو فى هذا الثوب . فالكنائس بطقوسها التقليدية ونظمها المالية والاجتماعية والأخلاقية قد فشلت في تجسيد ميثاق الحرية الذى هو حق من حقوقها . لأن الحياة المسيحية ، والحق يقال ، كلها مبنية على الحرية .

المسيحية تدعم الحرية :

فلننظر أولاً إلى البداية ، مع إبراهيم ، أبى الجنس اليهودى . هنا نجد رجلاً ، قد تجاسر وخرج بناء على دعوة الله ، على المألوف وحياة الاستقرار ليذهب متجهاً إلى مستقبل غير معلوم . ونقرأ القول عن إبراهيم «أنه خرج وهو لا يعلم إلى أين يأتى» . وفى قلب العهد القديم نرى قصة الخروج ، عندما رفضت جماعة من العبيد أن يظلوا تحت السيطرة الأجنبية ، ولكن بتحريك إلهى ، وعن طريق قائد ثورى ، تحرروا من عبوديتهم و انطلقوا فى رحلة طويلة ومؤلمة فى صحراء مجهولة المعالم إلى أرض الموعد ، وقد كانت هذه بداية الشعب اليهودى .

ولنلق نظرة على العهد الجديد ، ففى القلب منه يوجد صليب وقبر فارغ ، يشيران لحقيقة أن البشر فى أكثر أحلامهم إغراقاً فى الخيال لم يتصوروا إمكانية تحقيق الإنقاذ الذى يتضمن التحرير من عواقب خطايانا وعبوديتها القاسية . أو انظر إلى التاريخ المسيحى . هناك بالتأكيد العديد من الفترات المخزية ، كالحروب الصليبية ومحاكم التفتيش . جميعنا نعرف عن هذه الأشياء ، فهى أفضل عصا لضرب المسيحيين بها ، والكنيسة يحق لها أن تخجل لأن المسيحيين لا يعيشون حياة تشبه حياة مؤسس ديانتهم . ولكن من الذى كان له مجال الريادة فى حرية التعليم ؟ ومن كان رائداً لأحقية المريض فى العناية به فى المستشفيات ؟ ومن الذى حرر العبيد؟ ومن الذى حرر المرأة ؟ ومن الذى منع الأطفال من العمل لمدة ١٨ ساعة فى اليوم فى المصانع ؟ ومن الذى قاتل لأجل المساواة بين الأجناس ؟ ومن الذى أسس الاتحادات المهنية ؟ ومن الذى أتى بالدواء والتعليم للمناطق المتخلفة من العالم ؟ ومن هم المقاتلون لأجل الحرية فى الصين وكوبا كما كانوا فى أوروبا الشرقية خلال الحرب الباردة ؟ فى كل هذه الحالات سوف تجد بعض المسيحيين الشجعان لعبوا دوراً رئيسياً فى القتال لأجل الحرية .

فكِّر بعمق فى عبارة كهذه « ليس يهودى ولا يونانى .ليس عبد ولا حر . ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد فى المسيح يسوع » (غل ٣ : ٢٨) . أين تجد فى مكان آخر منذ قديم الزمان صوتاً يشبه الصوت المسيحى ، معلناً إزالة الحواجز العرقية والدينية والاجتماعية والجنسية التى فرَّقت بين البشر قروناً عديدة .

نعم ، فالكتاب المقدس متحمس للحرية كأى طالب ثورى أو كأفضل علماء العلوم الإنسانية التزاماً مما يؤمن به . ولكنه يقدم عدداً من المواصفات الهامة لهذه الحرية .

هل الحرية ممكنة بدون الله ؟

أولاً ، يرى المسيحيون دائماً أنه ليس هناك احتمال لوجود حرية فى الإلحاد ويمكن إثبات ذلك بعمل مسح لسجلات جميع عهود حكم الملحدين . ولكن هناك سبباً منطقياً لذلك أيضاً . فإذا لم يكن هناك إله ، لا يكون هناك مصدر شخصى لهذا العالم والطبيعة البشرية ، ولذا نجد أننا متروكون لعاملين ، كل منهما غير شخصى ، يمكنهما حكم العالم . ولا يسمح أى منهما بأى مساحة من الحرية .

العالم كله ، ونحن من داخله يمكن أن يتحكم فيها تماماً : القدر والنجوم أو المكونات الكيمائية لتكويننا الجسدى . ووجهة النظر هذه وراء الثقة فى قراءة الطالع الذى يعتبر سمة مميزة لكل المجلات فى هذه الأيام . إنها عقيدة السلوكيين التى تبناها ب . ف سكنر وأتباعه .

ومع ذلك فليس هناك سبب يدعونا لنؤمن بوجهة النظر هذه . فلو كانت الكيمياء فى دواخلنا هى المتحكمة فينا تماماً ، لكان هذا يعنى القضاء التام على كل من الحرية والحق . لأنه حتى إذا كنا أحراراً (وبناء على هذه الواجهة فلن نكون) لنجد الحق (مهما يكون) فلن نعرف إذا كنا على الطريق الصحيح أم الخاطئ . فإن عقولنا سوف تكون مصممة لتفكر بهذه الطريقة . ولن يكون هناك احتمال لتغيير طريقة عملها . فالحتمية سوف تتحكم فى كل شئ .

أما الافتراض الإلحادى البديل هو أن العالم كله فى حالة من الفوضى . إن بعض علماء

الوراثة يزعمون ذلك بالضبط فى ضوء علم الجراثيم . ولكن هل هذه الوجهة مثل الحتمية ، تقضى على كل من الحق والحرية ؟ إذا كانت الفرصة هى المتحكمة فى كل شئ ، فلن تكون هناك حقيقة تكتشف ولا حرية للتمتع بها . فكيف يمكن أن تجد الحقيقة إذا كان أسلوب تفكيرك فى حالة من الفوضى ؟ كيف تجد الحرية فى بيئة يسودها التشويش وعدم الانضباط ؟ إن بدعة عدم النظام الحديثة التى ترى الحقيقة على أنها مجرد بيان بأولوياتنا الفردية - أو محاولة استغلال الآخرين وإرهاقهم بمطالبنا - هى فى الحقيقة عدو ليس فقط للحقيقة بل للحرية أيضاً .

كلا ، فبناء على الافتراضات الإلحادية المسبقة لا يمكن أن نحصل على حرية حقيقية . فالحياة أساساً تكون بلا معنى . فأى تفسير إلحادى للعالم ، يؤدى للتفكك وعدم الترابط . إنه لا يستطيع أن يفسر كيف حصلت على كيانك الشخصى فى عالم غير شخصى . فهل نحن نشأنا من الزمن والفرصة والجماد ؟ فكيف إذن لا نستطيع أن نعامل أنفسنا والآخرين كمجرد مجموعات من الذّرات ؟ كيف نعلل الإحساس بالعار عند ارتكاب جريمة القتل على سبيل المثال أو التضحية بالذات فى سبيل قضية ما ؟ لدينا أشواق خالدة فى قلوبنا ، ولكن لا توجد أبدية لإشباعها . نستطيع أن نصلى ، ولكن لا يوجد إله يستمع لنا . لدينا قيم ، ولكنها فى النهاية بلا قيمة موضوعية ، حيث أننا جئنا من المادة ونعود إليها . الحرية ؟ بالتأكيد لا توجد . هناك حديث كثير عنها فى الدوائر الإلحادية ، ولكنها لابد أن تكون وهمية . لأنه بناء على وجهة النظر هذه ، فالكيان الشخصى ليس سوى شئ عديم القيمة على محيط الزمان والمكان والجمود .

كلا ، إذا أردت الحرية ، تعرف عليها كهبة من الإله الحى ، الذى يمكّن خلائقه من المشاركة فى شئ يدل على طبيعته وسموه .

إن الحرية ليست مسوغاً يتيح لك أن تفعل ما تريد ، ولكنها الحرية لتفعل ما ينبغى . ونحن نمتلك بالفعل صورة لما ينبغى أن تكون الحرية عليه .لا حاجة بنا إلى القول ،إنى أفكر فى يسوع . هل عاش إنسان حر على ظهر الأرض كما عاش هو ؟ .

نموذج الإنسان الحر :

لقد جاء من طبقة عاملة ، ومع ذلك فقد كان متحرراً من احتقار كل ما ينتمى للطبقة الاجتماعية العليا ، وكان متحرراً كذلك من الروح العدوانيـة . وقد نشأ فى بيت يهودى متزمت ، ومع ذلك كان متحرراً من التحيز العرقى والدينى . لقد نشأ كعضو فى جنس خاضع للسيطرة الأجنبية . ومع ذلك فقد كان مسيطراً على ظروفه . وعلى الرغم من أنه كان يؤمن بالعهد القديم ، إلا أنه كان يشعر بالحرية لإعادة تفسير مبادئه وفقاً للحالات الفردية ، فلم يكن عبداً للنظم ! إنه لم يستل سيفاً طوال حياته ، ومع ذلك فقد أثبت تعليمه أنه واحد من أكفأ قوى التحرير منذ أن علّم به .. إنه لم يحرر عبداً أو يعطى لامرأة حق التصويت ، ومع ذلك فمبادؤه قد أضرمت النار فى أعظم الإصلاحات الاجتماعية . إنه لم يعمل أبداً خارج فلسطين ، ومع ذلك فقد حرر إنجيله الرجال والنساء والطبقات الفقيرة والمنبوذة وقضى على التمييز العنصرى فى كل العالم أجمع . كان فى إمكانه أن يتمسك بحياته ويحافظ عليها لو أنه اختار ذلك ، ومع ذلك فقد سلم حياته طواعية عن عمر يناهز الثلاثين . لماذا ؟ ليس لأن أعداداً هائلة من الجنود قد لحقوا به ، ولكن لأنه قصد كما قال هو أن « يهب حياته كفدية لكثيرين » .

تأمل فى يسوع فى دار الولاية حيث حوكم ، فقد كان مقيداً معصوب العينين وهو ينزف الدماء الغزيرة . هل كان هو السجين أم معذبوه ؟ بالتأكيد هم كانوا كذلك ، كانوا أسرى الحقد والحسد والشراهة والكراهية والكبرياء والسادية . ولكن يسوع كان حراً ، مطلق الحرية . تأمل فيه أمام بيلاطس . ففى مواجهة الرجل الذى كان يمكنه أن يصدر حكماً بالحياة أو الموت عليه ، استطاع أن يعلن بهدوء « لم يكن لك علىَّ سلطان البتة لو لم تكن قد أعطيت من فوق » . لقد كان يسوع ، وليس قاضيه ، هو الذى كان حراً حقيقة .

وتأمل فيه فوق الجلجثة . فالاثنان الآخران اللذان صلبا معه كانا يلعنان ويسبان عندما سمرا فوق آلة التعذيب . أما يسوع فإذ لقى نفس المعاملة استطاع أن يصلى « يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون ». فأنت لا يمكن أن تفعل ذلك إلا إذا كنت تستمتع بالحرية الكاملة .

إن يسوع يجسد الحرية . إنه المثل الأعلى كشخص متحرر بالحقيقة . وذلك يعطينا مبرراً قوياً لنستمع إليه وهو يعطينا تحليلاً للعبودية البشرية . إن تحليله جذرى وغير متوقع .

تحليل يسوع لعبودية البشر :

لم يكن يسوع يشبه الذين يشايعون المذهب الليبرالى (الأحرار) العصرى ، فينسب الشر البشرى لعيوب فى السكن والبيئة والتعليم أو الاستقرار السيكلوجى . ولا شك أن هذه الأشياء تلعب دوراً ، ولكنه يضع إصبعه على نقطة جوهرية ، نقطة نخجل منها لأنها تمس وتراً حساساً فى حياتنا . ففى إحدى المناسبات قال لجمهور اليهود : « لو اتبعتم تعاليمى لصرتم أحراراً » ، فجاء ردهم فورياً - ومضحكاً ، على الرغم من أنهم كانو أمة مستعبدة : « لم نستعبد لأحد قط » ، وكان رد يسوع مفحماً : « من يفعل الخطية فهو عبد للخطية ». وفى مناسبة أخرى عندما كان سامعوه ينسبون سبب النجاسة لعدم الطهارة الطقسية ، قال يسوع : « أما تفهمون إن كل ما يدخل الإنسان من خارج لا يقدر أن ينجسه ... إن الذى يخرج من الإنسان ذلك ينجس الإنسان . لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة زنى ، فسق ، قتل ، سرقة ، طمع ، خبث ، مكر ، عهارة ، عين شريرة ، تجديف ، كبرياء ، جهل . جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان» . (مر ٧ : ١٨ .. الخ) .

لم تكن هذه الفكرة النيِّرة جديدة بالطبع ، فقد تأمل فيها الشرفاء عبر العصور ، على الرغم من أنه لم يوجد شخص عبّر عنها بقوة مثل يسوع . قال هيرودوت أبو التاريخ هذا القول : « إن أكبر شئ يصيب البشر هو هذا : إننا نهدف للحصول على الكثير ولكننا نفشل فى تحقيق ما نتطلع إليه » . وصرح سينيكا ، الفيلسوف الروائى الشهير قائلاً : « إنى فى قبضة العادات التى تكبلنى ، فلا أستطيع أن أهرب من الحفرة التى وقعت فيها ما لم تنقذنى يد عليا » . وقال أوڤيد شاعر أوغسطوس قيصر ، المترف بتهكم : « إنى أرى الطريق الأفضل وأوافق عليه ، ولكنى أسير فى الطريق الردئ » . والرسول بولس ، على الرغم من تأكيده القوى على الطهارة الأخلاقية كان عليه أن يصرح قائلاً : « لست أفعل الصالح الذى أريده بل الشر الذى لست

أريده فإياه أفعل » . وصاح المفكر اليهودى مارتن بوبر، والذى نجا من المحارق اليهودية وأفران الغاز، قائلاً : « من يستطيع أن يغير تلك الطبيعة البشرية التى يصعب السيطرة عليها ؟ هناك مأساة عميقة الجذور فى قلب كل واحد منا » .

هذه هى الحقيقة . إنها تنطبق علىَّ وعليك . فنحن مهزومون بسبب دوافعنا الحقيرة . إننا عبارة عن حرب أهلية تمشى على قدمين . كتبت لى ذات مرة إحدى الطالبات تقول لى : « لماذا أريد من الله أن يتحكم فى أخطائى ؟ ألا يجب أن أجاهد لتحسين ذاتى ؟ لقد حاولت ذلك لمدة عام ، ونجحت بدرجة كبيرة ، ماعدا أثناء الامتحانات عندما أشعر بالمرارة ولا أكون على سجيتى . حاولت أن أبرر لنفسى أن تلك فترة غير عادية ، ولكنى لا أستطيع . ولذا فإنى سوف أحاول بذل مجهود أكبر » . إنها تشكر على ما فعلت ، ولكن هذا لن يؤدى إلى شئ . وفى خطاب لاحق كتبت تقول : « إنى أشعر بالأنانية لأنى أعمل دائماً كعبدة لنفسى . وعلى الرغم أنى أقسمت فى الماضى لأجبر نفسى على أن أكون إنسانة أفضل ، فإنى أجد أنى لا أستطيع . إنى كسولة أكثر من اللازم ولا أستطيع أبداً التغلب على نقائصى » .

الاختيارات :

إن مذهب الحرية العصرى ليس واقعياً ، لأنه لا يعمل حساب انحراف الطبيعة البشرية . فمن يتمسك بالمبادئ الإنسانية فقط يحاول دائماً أن يتغلب على الحقيقة المؤلمة الخاصة بخطية الإنسان . لكن المسيحى يستطيع أن يواجه ذلك بثبات . إنه يعرف أننا لسنا صالحين فى الداخل . ويعرف أننا لسنا أحراراً لنفعل كل ما نرغب ، لأننا مستعبدون لأنفسنا . فهناك شئ واقعى جداً فى معالجة المسيحية لقضية الحرية .

وخلاصة القول هو هذا ، فإما أن نتحرر عن الله وبذلك نظل مستعبدين لأنفسنا أو نتحرر بالمسيح من سيطرة الذات ، ونصبح بالتدريج الشعب الذى قصد الله أن نكون ، ونأخذ مكاننا فى المجتمع العالمى كأحرار تحت عملية الإنشاء الإلهى . هذا هو البعد النهائى للحرية ، وعلينا جميعاً أن نصمم أن نتبع ذلك الطريق .

إن الطريق للحرية الحقيقية وعر ومنحدر ، قال يسوع : « من أراد أن يجد حياته يهلكها ومن أراد أن يهلك حياته يجدها » . ياله من تناقض مظهرى ! كيف يمكن أن يكون الحال ، كما تقول الصلاة القديمة « العبودية له حرية كاملة ؟ » . الإجابة هـى ، كما تقول ترنيمة بوب ديلان « عليك أن تخدم شخصاً ما » حسناً ، ولكنك قد تتساءل ، لماذا يجب عليّ أن أسلم حريتى ليسوع ؟ .

تحطيم الأغلال

دعنا نذكر النقاط الرئيسية . إن حريتنا مقيدة بثلاث طرق على الأقل . **أولاً** ، عن طريق قيود الأخطاء التى نسجناها حول أنفسنا فى الماضى والتى نحن مقيدون بها . **ثانياً** ، عن طريق الأنانية الفطرية التى تدفعنا لتحويل الحرية إلى نوع من الفوضى تبيح لنا ارتكاب الشرور . **وثالثاً** ، عن طريق حقيقة أننا سوف نواجه الموت . فالماضى - فاسد . والحاضر - ضعيف . والمستقبل - غير مضمون . هذا هو الموقف الإنسانى ، أليس كذلك ؟ وللتعامل مع هذه الحالة جاء يسوع المحرر الأعظم .

كيف يمكن ليسوع أن يتعامل مع ماضينا ؟

الإجابة على هذا السؤال نجدها فى الصليب . فهناك تحمل يسوع بدلاً منا وزر أخطائنا ، وبذلك فقد أزال الحاجز الذى أبعدنا عن الله . هل تشعر أنك بعيد عن الله ؟ هذا صحيح ، فأنت كذلك ! وقد شعر الناس دائماً بمثل هذا الشعور . ومنذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة مضت ، جاء بعضهم إلى إشعياء وقالوا له ذلك . وكانت الإجابة صريحة وواضحة « ها إن يد الرب لم تقصر عن أن تخلِّص ولم تثقل أذنه عن أن تسمع . بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع » (إش ٥٩ : ١ و ٢) . إن خطايانا قد أقامت حائطاً يمنع وصول الصوت بيننا وبين الله ، فلم تستطع صلواتنا أن تنفذ من هذا الحائط . وقد هدم يسوع ذلك الحائط فوق الجلجثة - فسقط عليه . لقد فعل ذلك حتى نستطيع أن نقترب من الله

بدلاً من أن نجد حائطاً يحول بيننا وبينه .

وهنا تثور العديد من الاعتراضات . كيف يكون من العدل أن يعاقب الله إنساناً بلا ذنب بديلاً عنا ؟ هذا ما لم يحدث أبداً . فلم يكن الأمر كما لو كان الله (طرف) عاقب يسوع (طرف آخر) لأجلنا (طرف ثالث) . إن الأمر يبدو هكذا كما لو كان جوراً فظيعاً ، والله كحاكم وديان لكل الأرض ، يجب أن يفعل ما هو صائب .كلا ، كالكفارة كما ندعوها ، هي حقاً كفارة لأنه في المسيح المصلوب التقى الله مع البشرية ، وهنا تحدث المصالحة . عندما مات يسوع على الصليب ، فقد مات كإنسان بديل عنا ، آخذاً مكان البشر الصحيح - مكان المرتكب للذنب ، المستحق للموت . ولكنه لم يكن مجرد إنسان . فقد كان هو الله . « فقد كان الله في المسيح مصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم » . فلا مجال للحديث عن عقاب طرف ثالث لأجل خطايا العالم (الكتاب المقدس لا يقول أبداً إن الآب عاقب يسوع) ، فالله نفسه جاء وسطنا وأخذ عبء ذنبنا غير المغفور الذي أثقل كواهلنا . وعلى الصليب تحمل اغترابنا ، فقبل وشرب سم ذنبنا . وقد فعل ذلك لأنه أحبنا .

إنك لا تستطيع أن تفهم كل شئ ؟ تشجع : فلا أحد يستطيع أن يفهم كل شئ . إن الشئ المشجع أننا لسنا مضطرين أن نفهم ذلك حتى نستفيد منه .فأنا لا أفهم الكهرباء ، ولكن هذا لا يمنعني من إضاءة النور ! بالطبع ، فأنا لا أستحق أن يقبلني الله ، ودون أن تكتب أي تهمة مقابل اسمي . بالطبع ، أنا لا أستطيع أن أحصل على ذلك العفو بنفسي . إني أقبله كهبة من يد الله المحب ، وإلا لن أحصل عليه على الإطلاق . كما عبر عن ذلك رئيس الأساقفة تمبل بالقول : « لا أستطيع أن أقدم شيئاً للحصول على خلاصي سوى الخطية التي أحتاج أن أنقذ منها » . إننا نستطيع أن نتحرر من عبء خطايانا الماضية فقط عن طريق صليب المسيح .

كيف يمكن ليسوع أن يجري تغييراً في حياتنا اليومية ؟

كيف يمكنه أن يأتي بالحرية ؟ الإجابة هي عن طريق الروح القدس . فعندما مات يسوع ، لم يكن الموت نهاية له . فقد قام ثانية في اليوم الثالث : نحن نحتفل بقيامته في عيد القيامة ،

وفى الحقيقة كل أحد (يوم قيامته) . إن ما أثار العجب عند أصدقائه أنهم وجدوه ليس محرراً فقط من الخطية بل من الموت أيضاً . لقد قام منتصراً عليه . وعندما أكمل مهمته هنا ، وتركهم ليعود لأبيه فى السماء أعطاهم عطية رائعة ، وهى روحه القدوس ليسكن فيهم . فالله الذى كان **فوقهم** كالآب ، **وجانبهم** فى يسوع ، كان الآن متاحاً ليعيش **فيهم** عن طريق الروح . كان يسوع قد قال لهم « خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى . ولكن إن ذهبت أرسله إليكم » وقال أيضاً : « لا أترككم يتامى ، إنى آتى إليكم » .إن الروح القدس هو الهبة الإلهية الذى يجعل يسوع حقيقة حية أمامنا : هذا هو لب الموضوع .

إن مثل هذا القول يدخل فى نطاق العجائب . إنه أشبه ما يكون بأن نفترض أن روح هاندل أو الفيس يمكن أن تأتى وتسكن فيك ، وتمكّنك أن تعكس شيئاً من عبقرية أى منهما . بالطبع ، هذا لا يمكن أن يحدث . ولكن عندما يعرض الله القدير أن يأتى ويشاركنا حياته ، من ذا الذى يقول إن ذلك مستحيل ؟ إنه ليس مستحيلاً ، كما سوف يخبرك ملايين المسيحيين لأنه قد حدث لهم ذلك . والطريقة الوحيدة لتتأكد من ذلك أن تجرب بنفسك .

هذه هى الإجابة التى يقدمها الله حتى نواجه العثرات المحيطة بنا ، ونعيش فوق مستوانا. إنه سيأتى ويعطينا قوة إذا طلبنا منه سيقاتل لأجلنا وفينا . ولا تظن خطأً أن الأمر ليس كذلك ، إنه قتال فعلاً . إنه ليس نزهة . إن الله لا يقضى على قراراتنا الحرة ، يوماً وراء يوم بإجبارنا على الصلاح . فنحن فى الحقيقة ضعفاء كما كنا قبل أن نسلم حياتنا له . الفرق الوحيد هو أن روح الله القوى فى المشهد الآن ، ويمكننا أن نستمد منه قوة إذا أردنا . إن العامل الوحيد الجديد فى الحرب ضد الشر هو وجود الروح القدس فى حياتنا والذى يمكننا أن نتجه إليه ونطلب معونته عندما تأتى التجربة ، أو نقاتل لوحدنا ونهزم ، كما كنا نفعل فى الماضى تماماً . ولكن دعنى أكون واضحاً هنا . إن الروح القدس هو جواب الله على الهزيمة الأخلاقية التى تفسد حريتنا .

ما الذي يقدمه المسيح لأجل المستقبل ؟

الإجابة على هذا السؤال هو القيامة . ومهما بدا الناس أنهم لا يبالون الموت عندما يكون بعيداً عنهم ، إلا أن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً عندما يدق الأبواب . عندما يموت شخص قريب لنا ، فهناك عدد قليل من الناس حقاً من يستطيعون التظاهر أنهم لا يؤمنون بنوع من الحياة بعد الموت ، ومهما كانت فكرتهم عن الحياة بعد الموت ضبابية ، فلم يوجد فى التاريخ البشرى جيل من البشر لم يتمسك برجاء التحرر من آخر عدو .

إن البدع الحالية تنحصر فى تناسخ الأرواح وتجارب النزع الأخير . وفى الحالة الأولى المفروض أنك تجتاز فى مراحل عديدة من الوجود حتى تصل فى النهاية إلى **النرفانا** أى العدم أو عدم الإحساس . إنها ليست شيئاً مثيراً كمستقر أو كطريق للسفر ، أليس كذلك ؟ من يرغب أن يمر فى مراحل متتابعة لا نهاية لها تقريباً من الحياة فى أشكال مختلفة ، ربما كعبد أو كفأر ، لكى يتأهل للفناء ؟ إنه بالتأكيد احتمال مخيب للآمال .

وتجارب النزع الأخير منتشرة بكثرة حالياً.ففى بعض الأحيان ، فإن الناس الذين عادوا للحياة بعد أن وصلوا لحافة الموت يتحدثون عن نفق مظلم ونور باهر، وأحياناً يتحدثون عن رعب لا يوصف .كان من المفروض أن أؤمن أن هذا ليس بعيداً عن التعليم الكتابى عن السماء وجهنم . ومع ذلك ، هناك طريقة واحدة يمكن أن نتأكد بها ، وهى إن عاد شخص ما حقيقة من القبر .

هناك شخص قد عاد من القبر اسمه يسوع وقد حدث ذلك فى صباح القيامة . وهو لم يمر بتجارب النزع الأخير . فقد مات حقاً لمدة ثلاثة أيام . وإذ عاد من القبر ، فهو الوحيد المؤهل ليخبرنا عن الموت وما يعقبه . لقد أخبر أتباعه أنه فى بيت أبيه يوجد أماكن كثيرة للراحة . وأخبرهم أن موته قد أعد لهم مكاناً . وأخبرهم أنه حيثما يذهب سوف يكونون معه . وسوف يكون هناك « احتفال يجمع الأصدقاء » . وهل نثق فى أقواله ؟ القيامة تقدم الجواب . إننا يمكن أن نثق به . فهو لم يعلّم فقط عن الحياة بعد الموت . لقد قام ليحيا حياة جديدة من تحت منجل الحصّاد الكئيب . فهذا شئ لم يفعله أحد من قبل . إن ذلك يعطيه مصداقية لدى الجميع ! .

فلتختر الحرية :

في العصور الوسطى ، كان هناك جدل كبير حول عما إذا كانت هناك أرض في غرب المحيط الأطلنطي . فقد اعتقد فريق بذلك ، وفريق آخر بغير ذلك . ولكن بعد عام ١٤٩٢ لم يعد الأمر في حاجة للنزاع . فقد وصل كريستوفر كولمبس إلى أمريكا وعاد منها . ومن ذلك الوقت فصاعداً أصبح مؤهلاً وحده ليخبر الناس عن هذه الأرض فيما وراء البحر وأن يرشدهم للذهاب إلى هناك . لقد كان هو الدليل الحي على وجود مثل هذه الأرض . وكان أيضاً هو الربّان الذي يستطيع أن يأخذ الآخرين إلى حيث ذهب هكذا الحال بالنسبة لقيامة يسوع . فهي لا تظهر فقط أن هناك بالفعل حياة بعد الموت ، بل أنها تؤهله أيضاً أن يأخذ الآخرين إلى هناك . فالله بالفعل ، كما اكتشف الرسول بطرس « قد ولدنا ثانية لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات » (١بط ١ : ٣) . إنها خبر سار ومفرح ، إنها تعني تحريراً كاملاً من الكآبة المقبضة التي تعترينا عادة عند ما يموت شخص عزيز على قلوبنا ، وتحررنا أيضاً من قبضة الرعب عندما نواجه العدو الأخير بأنفسنا .

فإذا كنت تبحث عن التحرير في أكمل مستوى ، عليك أن تعمل حساباً للموت . فمن الحماقة أن تهمله ، لأننا جميعاً سوف نموت . هل فلسفتك عن الحرية كبيرة إلى الدرجة التي تحتضن فيها الحياة بما فيها الموت ؟

من الطريف أن نقارن بين الطرق المميزة التي يميل إليها المفكرون الأحرار والمسيحيون في الاقتراب من الموت . كان ڤولتير ، على سبيل المثال ، عقلانياً طوال حياته . ومع ذلك فقد صاح عند موته قائلاً : « يا الله خلصني . يا يسوع المسيح ارحمني » . ويموت بعضهم وتعتريهم كآبة روح عظيمة . وقد عبَّر ديلان توماس كما رأينا ، عن ذلك بقوة حين قال : « لا تذهب هادئاً إلى تلك الليلة المظلمة . إن كبار السن يجب أن تحرقهم ثورة الغضب عند نهاية النهار. الغضب، الغضب من اختفاء ضوء النهار » . ولكن مهما غضبنا فلن يفيد هذا في شئ . ويهز آخرون أكتافهم مثل اسكيلوس قديماً ، الذي قال : «عندما يشرب التراب دم الإنسان، لا توجد قيامة». وفي أفضل الأحوال يمكنهم أن يقولوا مع الفيلسوف توماس هوبز « عندما أموت سوف تلتهم

الديدان جسدى ، وسوف أسلم نفسى « للأمانى العظيمة » .

قارن هذه العبارات بالطريقة المميزة التى واجه بها المسيحيون الموت . فشجاعة الشهداء ووجوههم المشرقة عبر العصور ، والثقة الهادئة التى يتسم بها المسيحيون العاديون عندما يقتربون من الموت تقدمان الدليل على قول الرسول بولس الواثق « لى الحياة هى المسيح والموت لى ربح ». فقد اشتهى أن « ينطلق ويكون مع المسيح ذاك أفضل جداً » ، وقد اختتم شهادته بدمه .

هذه هى الحرية التى يقدمها يسوع . إنها حرية عظيمة لدرجة أنها تحتضن الماضى والحاضر والمستقبل . إنها حرية تحررنا تدريجياً من الأنانية التى تعمل على تآكل المجتمع وتدميره . إنها تحررنا ليخدم بعضنا بعضاً دون أن نعمل حساباً لما سوف نستفيده من ذلك . إنها حرية تمكننا أن نعيش لا وفقاً لكتاب يحوى قواعد السلوك ولا وفقاً للأنانية الباحثة عن اللذة ، بل حياة ملؤها فرح الشركة مع المسيح الذى يسكن روحه فينا ، والذى تعد خدمته حقاً هى الحرية الكاملة . ليس هناك قوانين تحكم هذه الحياة بأكثر من القوانين التى تحكم العلاقة بين العريس وعروسه اللذان يحبان كل منهما الآخر بشدة ، وبسبب هذه المحبة فإن كلاً منهما على استعداد لعمل أى شئ لإرضاء الآخر .

هناك بالطبع ، ثمن لهذا النوع المتميز من الحرية ، والثمن هو إفساح المجال للمسيح ليحررك من كل ما تعـــرف أنه خاطئ فى حياتك . وهو السماح له أن يحررك على الدوام من قبضة الأنانية . وهو الالتصاق بعائلته والعمل بنشاط لإعلاء ملكوته ، ونبذ الوقوف موقف المتفرج والجبان الذى يخاف من أن يعترف بأنه ينتمى ليسوع ويخدمه . علينا أن نختار . علينا أن نعبد شخصاً . من سيكون ؟.

الفصل التاسع

المحبـــة

سوء فهم المحبة فى المفهوم العصرى

إذا وجُد مجتمع ما يعانى من ارتباك تام بشأن المحبة والجنس فسيكون مجتمعنا . إن المحبة بلا شك هى االاهتمام لأول فى حياتنا ، ولكننا لسنا متأكدين بالمرة مما تعنيه . كنا نعتقد أننا سنجدها عند والدينا ، ولكنهم منهمكون للدرجة التى لا تتيح لهم وقتاً لتخصيصه لنا ، وفى النهاية ينتهى كل شئ بالطلاق . لقد اعتدنا أن نجدها فى الأسر السعيدة ، ولكن يبدو أن هذه الأسر تكاد تكون ذكرى لا وجود لها . كنا معتادين أن نبحث عنها فى الصداقة ، ولكن الصداقة فى هذه الأيام بدون الجنس تعتبر شيئاً غير مألوف . وحتى المقابلات الأكاديمية تتم عادة مع ترك الباب مفتوحاً خوفاً من الاتهام بالتحرش الجنسى . ولا يمكنك أن تترك أطفالك فى رعاية الحاضن أو الحاضنة دون أن تخشى الاعتداء الجنسى عليهم . هناك خلل خطير . إن ذلك واضح . قال ألبير كامى : « إن عبارة واحدة تكفى لوصف الإنسان العصرى . إنه شخص قد ارتكب جريمة العهارة ثم قرأ الجرائد » .

الانحلال الأخلاقى :

لقد وضع كامى إصبعه على جزء هام من المشكلة . فهناك انحلال فى الأخلاق العامة خلال نصف القرن الماضى لدرجة أن المحبة بمعناها الكامل وهى لا تشمل الجنس فقط بل الإحساس بالشركة والصداقة والأمانة والثقة وإنكار الذات والاحترام والتناغم قد اختفت تقريباً . وبدلاً من ذلك فقد حلت الأنانية محل الإيثار ، والبحث عن المتعة بدلاً من التضحية بالذات ، والإشباع

الجنسي الفوري بدلاً من الالتزام الطويل الأمد . فلا عجب إن شكا دودلي مور (Dudley Moore) قائلاً : « إنى أبحث دائماً عن ليلة هادئة ذات معنى » . إن مثل هذه الليالي لا توجد .

توصل مالكولم ماجردج (Malcolm Muggeridge) إلى أن « الجنس هو قدس أقداس المادية ، والديانة الممكنة الوحيدة فى مجتمع مادى » . وكما رأينا فى فصل سابق ، فنحن الآن قد جعلنا النجاح أو الازدهار المادى هدفنا النهائى ، إلهنا . وهذا له نتائج مدمرة خاصة حين يطبق على فلسفة « الأنا » لهذا الجيل . فهناك جوانب خاصة بنا كالعبادة والحب وإنكار الذات والرقة والمشاعر لم تعد موجودة فى مكان العمل ولكنها تظهر فى العلاقات الشخصية ، وتبدو فى صورة مثالية فى الاتصالات الجنسية .

وحيث أن الله أصبح من مخلفات الزمن الماضى ، فليس من المستغرب أن يبدو الجنس أنه الخير الأسمى . ولذا فهم يقولون لنا فى كل فيلم سينمائى وإعلان تجارى وكتاب ومجلة وإعلان ، إن الجنس هو أعظم هدف فى الحياة . فإذا لم تمارسه ، تصبح متخلفاً عن الركب ، فأنت غير عائش . وقد اختفت فضيحة ممارسة الجنس فى سن مبكر ليحل محلها فضيحة البتولة . ذكر وودى ألان ملاحظته الطريفة التى يقول فيها : « توجد ثلاثة أشياء هامة حقاً فى حياتى ، أولها الجنس ، والاثنان الآخران لا يبدوان بنفس الأهمية الآن » .

ونحن نعرف جميعاً الأخطار الناجمة عن ذلك : ارتفاع كبير فى حالات الحمل بين المراهقات ، وانتشار الأمراض الجنسية ، والقلوب الكسيرة ، والعائلات المحطمة والإيدز وتوابعه ، ولكننا لا نبالى . إننا نندفع اندفاعاً محموماً وراء هرموناتنا . اعترف مايكل دوجلاس فى إحدى جلسات التأهيل النفسى الجماعى قائلاً : « الجنس موجة تكتسحنى - إنها رغبة عارمة . إنها تتملكنى غصباً عنى بقوة . وعندما تحين الرغبة ، أصبح عاجزاً عن مقاومتها فى كل مرة . لقد تحملت كل المخاطر التى لا تصدق فى سبيل إشباعها » .

البيوت المحطمة :

لماذا نتحمل تلك المخاطر ؟ لأننا ببساطة نتبع الثورة الجنسية للستينات ؟ هذا أحد الأسباب. فالذين يبلغون العشرينات اليوم هم أطفال أول جيل يتعاطى الحبوب ، ويجعل الإشباع الشخصى والفورى من الأهداف النهائية . إنهم لا يعرفون نماذج أخرى . ولكنهم قد تعرضوا لضرر بالغ عن طريق مبدأ اللذة هذا النجاح المادى ، اللذان يشكلان نمط حياة والديهم . فاللعبة اسمها الأنانية ، وقد نتج عن الأنانية انهيار الأسرة على نطاق واسع . إن اختفاء الالتزام المتبادل هو العنصر الرئيسى فى المجتمع البريطانى هذه الأيام . إن الوالدين ينفصلون لأنهم لا يمتلكون الشجاعة الأخلاقية التى تجعلهم يفون بتعهداتهم عندما تشتد المصاعب ، ولكن الأطفال هم الذين يعانون . وفى مسح وراء الآخر لأطفال الطلاق ، تجدهم يعترفون بأشواقهم العميقة للعائلة المتماسكة .

إن الوصف التالى ذو مغزى عميق وبارز :

فى الليل تزحف جين إلى سرير أمها وتجعل أمها متيقظة طوال الليل ، بسبب تقلبها فى الفراش وهى تحلم أحلاماً مفزعة . وجاء اندى من المدرسة يحمل رسوماً لأمه وأخته ولنفسه وهو يمسك بها بقوة ، ولكن جميع الرسوم تحمل وجوهاً مقطبة الجبين . عندما جاءوا بعد زيارة والدهم ، سمعت كارن ابنها فى الحمام وهو « يتقيأ » .

إن أكبر مسئول طبى فى الحكومة البريطانية ، دكتور كينيث كالمان ، قد ألقى الضوء مؤخراً على العواقب الوخيمة لارتفاع نسبة الطلاق فى بريطانيا . فهى أعلى نسبة طلاق فى أوروبا ، وهى فى زيادة مستمرة . وهو يذكر بعض العواقب بالنسبة للأطفال . فالبنات اللآتى يجدن أنفسهن فى عائلة مكونة من أحد الوالدين فقط مع زوجة الأب أو زوج الأم قبل سن السادسة عشرة فإنهن يتعرضن لخطر مضاعف بأن تصبحن أمهات فى سن المراهقة . وهناك احتمال مضاعف ثلاث مرات لأن تترك الفتيات أقل من ١٦ سنة المنزل بسبب الخلافات أو الشعور بالصدمة ، وهناك احتمال مضاعف أربع مرات لزواج مبكر مأساوى عند البنات اللآتى يعشن مع

والديهن .أما الأولاد فليس أمامهم نموذج يحتذى لكيفية سلوك الزوج والأب .وهناك احتمال مضاعف بالنسبة لأطفال الوالدين المطلقين بأن يتركوا المدرسة فى سن الـ ١٦عن أولئك الأطفال المنحدرين من عائلات متماسكة البنيان .ونحن لا نندهش حين نسمع أن التدخين نسبته لا تزال مرتفعة وأن إدمان المسكرات والمخدرات فى زيادة كبيرة .إن الخمور مسئولة عن ٤٥٪ من حوادث الطرق الخطيرة بالنسبة للشباب ، و٧٥٪ من كل الجرائم التى ترتكب يمكن نسبتها لتناول المسكر.

الباقون على قيد الحياة :

ليس من الصعب أن نرى إلى أين قادنا كل ذلك . لقد أنتج جيلاً من الشباب الصغار الذين بقوا على قيد الحياة . لقد بقوا على قيد الحياة بعد التعرض لتهديد الإجهاض ليدخلوا إلى هذا العالم بادئ ذى بدء . لقد تحملوا الاعتداء الجنسى أو الإهمال وأنانية الوالدين التى إما أنها أهملتهم نظير تقديم بعض الهدايا بدلاً من العلاقة الأبوية أو أعطتهم الانطباع بأنهم كم مهمل عن طريق الإهمال أو الطلاق . وقد تحملوا أيضاً كماً هائلاً من التعليم المادى الخاطئ عن طريق ساعات لا حصر لها أمام التليفزيون . لقد تحملوا فى حالات عديدة ، فساد العصابات والشوارع . لقد فقدوا ثقتهم فى الناس والمؤسسات . وتعلموا أن يعتمدوا على أنفسهم – لقد اضطروا لذلك . ومع ذلك فقد بقوا على قيد الحياة . إنه شئ يدعو للإعجاب حقاً ، كما عبر وليم مهيدى عن ذلك بالقول : « على الرغم من أن هؤلاء الشباب يعانون من الجوع الروحى ، والصدمة العاطفية والحرمان من التعليم ، والحكم عليهم بمستقبل اقتصادى يدعو للتشاؤم ، وقد افتقدوا الأمل الذى يميز الشباب إلا أن موقفهم يدعو للدهشة » .

إن شيئين قد أصابهما ضرر بالغ فى دواخل نفوسهم . إنهم يعرفون أن الأشياء المادية التى أتعست والديهم لن تشبع . وعلى الرغم من عدم ثقتهم المبدئية التى لها ما يبررها ، إلا أنهم فى شوق عميق للعلاقات . وفى عصر يعانى نقص حاد فى المثل والنماذج التى تحتذى ، فهل لدى يسوع المسيح أى شئ هام ليقوله بصدد هذه القضية الشائكة ؟ هل المسيحية قادرة على مساعدتنا للتغلب على ما نعانيه من خلط وسوء فهم بالنسبة للمحبة .

المفهوم المسيحى للمحبة

إن المبادئ الأساسية التى تنادى بها المسيحية فى تناقض صارخ مع الافتراض المقدم من سجموند فرويد . فقد كان يعتقد أن فكرة الإله المحب قد نبعت من الحب البشرى . وهكذا فنحن نسقط تصورنا عن الأبوة على السماء ، أو ندعوها الله ، ونطبق نفس العواطف عليها كما نفعل مع آبائنا . ولذا فالحب البشرى هو الأساس وهو حقيقى ، ومحبتنا لله مستمدة منه وهى محبة وهمية . والمسيحية على طرفى نقيض ، تؤكد أن محبة الله هى الأساس ، وكل حب بشرى مُستمد منها وهو بمقياس معين (مهما كان مشوشاً) انعكاس باهت لمحبة الله ، المحبة التى تسيِّر حركة العالم . فهى أبعد ما تكون عن إسقاط صورة الآب على السماء الخاوية ، فالمحبة هى أعظم قوة فى العالم أساساً لأنها تعكس الحقيقة الجوهرية عن الكون ، إنها نابعة من الله ، والله محبة ، ونحن نحبه لأنه أحبنا أولاً . هذا هو المفهوم المسيحى الأساسى عن هذا الموضوع . والمحبة هى بصمات الله الأخرى على رمال حياتنا (انظر الفصل الأول) ، التى تقودنا نحوه ، وتدفعنا نحو أحضانه . دعنا نحاول أن نقيس هذا الافتراض . سوف نجد سبعة أشياء فى محبة الله يعكسها الحب البشرى بشكل واضح ،لها سبعة عناصر سوف تقدم لنا تصوراً واضح المعالم لفكرة المحبة .

المحبة شخصية :

لا يمكن أن تحب فى فراغ ، فنفس الكلمة تعنى علاقة بين أشخاص . وأن تقول « أنا أحب » عبارة خاوية من المعنى ولكن أن تقول « أنا أحبك » شئ عظيم . وهذا نفس ما يؤكده العهد الجديد كله « هكذا أحب الله العالم ... ابن الله أحبنى ... » . وهذا يعنى أنى موضوع محبته. قد لا نشعر بهذا. إننا قد نشعر أن الله يمكن أن يحب أى شخص آخر ، ولكنه لا يمكن أن يحبنى . ولكن يسوع جاء ليعلن أن الله يحب كل واحد فينا . وحياته نافذة تسطع من خلالها محبة الله علينا .

كيف يمكن لله أن يظهر مقدار اهتمامه بنا سوى عن طريق حياة بشرية ؟ حياة قضاها لأجل

الآخرين ، حياة سكبها فى عطاء بلا حدود . إن يسوع يرينا ماهية الله . فهو يظهر لنا محبة الله بقدر ما نستطيع أن نستوعب . لقد أعلن بصدق : « من رآنى فقد رأى الآب » .

ويمكن تلخيص الموضوع كالآتى . فأنت وأنا لسنا مضطرين للبحث عن الله . إن الله يبحث عنا . إنه يواجهنا فى شخص يسوع ويقول بالفعل : « هذه هى المحبة . إنها محبة باذلة لكل شئ لغير المستحقين تماماً . هل تريد الحصول عليها أم لا ؟ إن المحبة التى جعلت العالم يدور فى الفضاء ، قد تفجرت فى يسوع . إن المحبة تواجهنا شخصياً وتبحث عن استجابة . والقضية الهامة هى : « ما هو رأيك فى يسوع ؟ » وليس « هل الله موجود ؟ » .فهذه طريقة خاطئة لصياغة السؤال . إنها تترك مجالاً واسعاً للجدل والهروب من المواجهـــة . ولكن الله الحى ليس « شيئاً » لكى نحلله ونختلف بشأنه . الله هو الكائن الأسمى الذى نواجهه . وهو يواجهنا فى شخص يسوع ، وليس كفرضية جدلية نتفق أو نختلف بشأنها بل كشخص نلتقى به . فأنت لا يمكن أن تحب افتراضاً معيناً ، ولا يمكن أن تجادل بشأن شخص . الطريقة الوحيدة للاكتشاف الأكيد هى المقابلة . إن كل أنواع الحب البشرى ، بطبيعته ، عبارة عن علاقة بين الأشخاص ومحبة الله لا يمكن أن تقل عن ذلك المستوى .

المحبة مشبعة

أنت تعرف معنى أن يحب شخصان كل منهما الآخر . إن كلاً منهما يستغرق فى الآخر تماماً ويشعر بالإشباع العميق . لقد بدآ فى تذوق حياة جديدة يتقاسمانها سويـــاً ، وهو شئ رائع . « عندما يحبك شخص آخر حباً حقيقياً ، فهذا يعنى بداية حياتك .. » .

ولسوء الحظ فإن هذا الحب يموت بسرعة كبيرة: وأحياناً ينتهى بالزواج ، ولكن حتى مع ذلك، فكل حب بشرى ناقص . إنه يشير لشئ أكبر منه . إنه يوصلنا لاختبار لا يشبعه هو نفسه. وليس ذلك مدهشاً إذا استثنينا المحب الأعظم من حياتنا . إنى أعلم أننا لا نتصور الله كذلك . فنحن نشعر أنه مثل كبير الشرطة . ونحن نخشى أن يكون هدفه أن يجعل الحياة محترمة وكئيبة ، وليست مرحة ومشبعة . ومهما كان المصدر الذى استقيت منه هذه الفكرة ، فهى لا تمت

بصلة للعهد الجديد أو لشخص يسوع ، الذى جلب السرور معه حيثما ذهب .« قد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل » هكذا قال يسوع . والذين يستودعون حياتهم له يعرفون مدى صدق هذا القول . يصف فرانسيس طومسون فى قصيدته الكلاسيكية « المطارد السماوى » جهوده لإبعاد الله عن حياته لأنه اعتقد أن الله سوف يفسد حياته ، لا أن يشبعها . وأخيراً اكتشف غلطته . فالمطارد السماوى يصيح « إنك طردت المحبة بعيداً عنك ، فمن يطردنى » .

من أبرز سمات المجتمع العصرى الخوف . إنه موجود دائماً ، حتى وإن تنكّر فى زى مخالف . الخوف من الوحدة والبطالة والخيانة والفشل والسخرية والموت . يقول برتراند رسل فى كتابه « لماذا أنا غير مسيحى » عن المسيحية هذا القول : « إن الديانة مبنية أساساً على الخوف ... الخوف من الأشياء الغامضة ، الخوف من الهزيمة والخوف من الموت .الخوف هو أساس لكل شئ » ثم يستطرد قائلاً : « والعلم يمكن أن يساعدنا لنتغلب على هذا الخوف الدفين الذى عاشت فيه الإنسانية وقتاً طويلاً من الزمن » . يا لها من عبارات تدعو للسخرية ! فالعلم قد دفع بنا نحو حمأة الخوف ، الخوف حتى من مجرد استمرار كوكبنا . وللحقيقة فإن بعض الديانات ، وبخاصة أصحاب مذهب الحلولية (حلول الأرواح فى كل شئ) ، مبنية على الخوف ، ولكن الإيمان بيسوع لا يمكن أن يوصف بذلك . « لا خوف فى المحبة ، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج ... من خاف فلم يتكمل فى المحبة » . هكذا كتب واحد من أقرب أصدقاء يسوع إلى قلبه (١ يو ٤ : ١٨) .

إن المسيحية الحقيقية تنزع عنا الخوف ، حيث تنسكب محبة المسيح . إن خوفى لعدم كفايتى ينتهى بواسطة المحبة التى تقبلنى كما أنا . وإحساسى بالوحدة فى هذا العالم الآلى الجامد يقابله الرفقة الدائمة ليسوع المقام . إنه حى ، ومعى طوال الوقت .

هل تريد حياة مشبعة حقاً ؟ إن أكبر ثلاثة أشياء فى هذا العالم لن تجدى شيئاً وهى المال والجنس والسلطة . إنها لن تشبع أشواق قلبك العميقة . ولكن إذا سمحت لمحبة الله أن تدخل إليك وتعمل فى الآخرين من خلالك ، فإنك ستبدأ حياة صعبة ولكنها مشبعة حقاً . سوف تعمل ما خلقت لأجله .

المحبة باحثة :

يقولون إن الحب أعمى ، وهذا هراء . فلا يمكن للشخص أن يكون فى تمام اليقظة سوى عندما يكون واقعاً فى الحب . فالمحب يبحث عن المحبوب ويريد أن يكتشف كل صفاته الشخصية ، وكل ما يتعلق بمزاجه وكل استجابة له . والمحبون لا يقبلون أى نوع من الخداع أو إخفاء الحقائق ، وأى أسرار . إنهم يريدون أن يعرفوا موضوع حبهم مراراً وتكراراً .

والله كذلك يفحص كل شئ فى محبته . فهو لا يمكن أن يُخدع ولا يمكن أن تنطلى عليه أى حيلة ولا يمكن إبعاده عنك ، فعيناه كشعاع الليزر . ما الذى يراه عندما ينظر إليك وإلىّ ؟

إنه بالتأكيد يرى الفساد فى حياتنا .ففى عصر يُعتقد فيه مرة أخرى أن الجنس البشرى مقياس لكل شئ (كما لو لم يكن هذا التعليم قد ثبت أنه تعليم مدمــر للعالم القديم ، النهضة والاستنارة) فإن المشكلة الرئيسية تكمن فى الناس أنفسهم ، إن شسترتون G.K Chesterton قد كتب أقصر رسالة لجريدة التايمز ، فقد كان الموضوع هو « ما هى مشكلة العالم ؟ » ، وأجاب شسترتون « ياسيدى ، أنا » . فالطمع والشهوة والكراهية وعدم الأمانة واللامبالاة والحقد - بذور هذه الأشياء موجودة فى أعماق كل منا ، فقد ولدنا بها ، كما ولد أجدادنا . ونحن لا نستطيع أن نزيلها ، مهما حاولنا . إن داءنا غير قابل للشفاء . كما ذكر الأستاذ هربرت بترفيلد فى كتابه « المسيحية والتاريخ » :« من الضرورى ألا نثق فى الطبيعة البشرية . فمثل هذا الوهم عصرى وهو مدمر . فالتاريخ يكشف خطية الإنسان الشاملة » . فهذا الشئ الذى يراه الله كقناع للرقة حالما يتمزق ويكشف عن وجوهنا ونظهر على حقيقتنا . ولكن هذا ليس كل شئ ، فالله لا يرى فقط الفساد فى حياتنا ، ولكنه يرى أيضاً **الأنانية** . يعبر الرســول يوحنا عن ذلك بالقول « ليس نحن أحببنا الله بل هو الذى أحبنا .. » .إننا بالتأكيد لا نحب الله ، ولا نقبله ، لقد كان تينسون مخطئاً عندما قال :« نحن المحتاجين لابد أن نحب الخير الأسمى عندما نراه » . ولما جاء الخير الأسمى ... سمرّناه على صليب . فقد ثبت أنه غير مريح بالنسبة لنا ، ونوره أسطع من أن نراه . لكن الحكم الصادر ضدنا يقول « أحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة » (يو ٣ : ١٩) . فعلى الرغم من كل ما أغدقه علينا الآب الكريم من عطايا ، فنحن

كالابن الضال ، ذهبنا بعيداً وأعطيناه القفا لا الوجه ، واخترنا عمداً أن نعيش فى كورة بعيدة . وفى نفس الوقت فإن أنانيتنا تكسر قلبه المحب .

المحبة دائمة :

من أقسى الأشياء فى الحياة زوال المحبة . فأن يتخلى عنك الشخص الذى تحبه ويتخلص منك فهذا هو الجحيم بعينه . نحن نعرف أن محبة والدينا ليست دائمة ، فهم يملّون منا أو يحصلون على الطلاق ، ويبدو أنهم لا يهتمون كثيراً بأن نبقى فى رعايتهم . ولكننا كنا نأمل فى أشياء أفضل بالنسبة لتجربة حبنا . ولكن للأسف فهذا ما لا يحدث . كتب أندرودافيز فى كتابه « الشعور بالصدمة » قائلاً : « كل ما هو مهم أنها اعتادت أن تحبك والآن فهى لا تحبك . إنك تفقدها ، وكل شئ قد انتهى ، وأنت تشعر بالصدمة . إنك شعرت منذ البداية أنها يمكن أن تضرك ، والآن أنت تعرف بالتأكيد ... أنك فقدتها . إنك راكب بلا مقعد ، وجندى مجروح . إنك تشعر بالصدمة .. هل سيدوم ذلك الشعور إلى الأبد ، أن تشعر هكذا ؟ إنى لا أعرف .

تساءل د . هـ لوزيس ، واحد من أكثر الكتّاب حساسية عن الحب فى كتابه «سيدات محبات» عما يمكن أن يحدث لو وصل الجنس البشرى لطريق مسدود ودمر نفسه ؟ وهو يأمل أن يجود القدر بجنس آخر ليواصل المشوار . هذا أفضل ما يمكن أن يفترضه شخص ملحد حساس . ولكن ليس هذا أسلوب الله الذى هو محبة . إنه لا يتركنا عندما ندمر كل شئ تماماً . إنه يدعونا ويتوسل إلينا ويأتى ليجدنا ويموت لأجلنا . وهو يؤكد لنا أن محبته أبدية . ولا شئ فى كل الخليقة يستطيع أن يختطفنا من بين ذراعيه . إنه لن يتركنا أو يتخلى عنا . ولن يطلقنا أو يلقى بنا فى سلة المهملات . فالرب مثل أى محب بشرى يبقى معنا قلباً وقالباً . وبذلك فهو يشبع أشواقنا العميقة لعلاقة لا تنتهى ، هذا الشوق الذى غرسه هو نفسه فينا . إن الحب البشرى يدوم مدة طويلة ولكن له حدود ينتهى عندها . ولكن محبة الله لا حدود يقف عندها .

المحبة مضحية :

لن نعرف مقدار حب شخص لنا حتى نرى مقدار استعداده للتضحية والمعاناة لأجلنا . إن عنصر التضحية مقياس الحب الحقيقى . فما يعتبر حباً هذه الأيام لا يعرف شيئاً عن هذا العنصر المكلف والمضحى ، إنه فى الحقيقة ليس حباً على الإطلاق ، بل مجرد شهوة فى ثياب تنكرية تكشف عما تحتها . فالشهوة تقول « أنا » والحب يقول « أنت » . الشهوة تأخذ والحب يعطى ، الشهوة تطلب المتعة والحب على استعداد للتضحية . ربما يكون عدم وجود الحب الحقيقى عند كثير من الناس هذه الأيام يجعل من الصعب عليهم أن يقدروا محبة الله حق قدرها لأنها لا تحوى سوى العطاء و « ليس الأخذ » . إن الله وهب نفسه لهذا العالم المرعب الذى شوَّهناه نحن تشويهاً كبيراً . لقد وهب نفسه لأقسى الظروف الجسدية والاقتصادية . وهب نفسه للاعتداء والرفض. وهب نفسه لأقسى أنواع الموت الذى يمكن أن يموته إنسان . نحن نعرف ذلك جيداً لدرجة أن هذه المعلومة فقدت تأثيرها علينا . ربما يفيدنا أن نتعرف على مثال بشرى :

رويت هذه القصة فى كتاب أرنست جوردون الذى عنوانه « معجزة على نهر كواى » عن أسير فى أحد المعسكرات فى أثناء الحرب العالمية الثانية . كانت معنويات أسرى الحلفاء فى هذا المعسكر منخفضة جداً وهم يعملون فى سكة حديد بورما فى خدمة الذين أسروهم . كانت معنوياتهم منخفضة لدرجة أن الرجال نسوا كل معاملة إنسانية معتادة ونزلوا إلى مستوى الحيوانات حتى يبقوا على قيد الحياة . كان كل واحد يريد أن ينجو بجلده . ويوماً ما بعد العمل ، تم حصر الآلات كالمعتاد ، وكانت إحداها مفقودة . ولذا صدرت الأوامر بأن يقف الجميع فى طابور وتم استجوابهم بشأن هذه الآلة المفقودة . وصدر الأمر بأن الذى أخذها عليه أن يتقدم الطابور ، ولم يتحرك أحد . فاستشاط الضابط غضباً ، فأخذ يهدد الأسرى ويتوعدهم بإطلاق النار على عدد كبير منهم إذا لم يتقدم الشخص المذنب بإظهار ما سرقه . وكان واضحاً أنه كان يعنى ما قال . وفجأة تقدم شخص للأمام وظل يُضرب حتى مات على أيدى اليابانيين . وأمر بقية الفريق بالعودة إلى المعسكر ثم تم حصر العدد ثانية وأُكتشف أن خطأ ما قد حدث عند الحصر الأول : فقد كانت جميع العدد مكانها ! وتركت الحادثة أثراً عميقاً على كل أفراد

المعسكر . لقد أحدثت ثورة في معنوياتهم . هاهنا رجل كان بريئاً تماماً ولكنه مات طوعاً لكي ينقذ رفاقه الذين سوف يحكم عليهم بالموت . إن هذه تضحية بالنفس خارج نطاق المألوف ، إنها تضحية يصعب تصديقها لغرابتها .

إن محبة الله شبيهة بذلك . فالجنس البشرى محكوم عليه بالموت ، كهؤلاء الأسرى - مع الفارق بأننا جميعاً نقف مدانين بعدل . وهكذا كانت محبته وتضحيته بذاته حتى أن يسوع قد تقدم طوعاً إلى الأمام وأخذ مكاننا حتى نتحرر كلنا . لقد تحمل الموت طوعاً واختياراً لنحيا نحن . إن محبة الله بهذا القدر ! « لقد أرسل ابنه ليخلص العالم » ، ولنا أن نتأكد أننا مقبولون بسبب ما عمله لأجلنا ، مع أننا فى ذواتنا غير مقبولين . هذه هى ثمار المحبة الباذلة المضحية .

المحبة محفزة :

عندما تحب فتاة فتى بحب عميق غير أنانى ، وعندما تكون على استعداد أن تضحى بكل شئ لأجله خاصة عندما يشعر الولد أن الفتاة أفضل منه - حينئذ فهو يشعر بنوع من التحفيز يسرى فى كل كيانه ، فهو يعرف أنه لا يمكن أن يعبث ببساطة بمحبة كهذه . فعليه أن يفعل شيئاً إزاءها . وهى تتطلب بذل النفس فى المقابل . ولا شئ أقل من ذلك . عليه أن يصمم إما أن يكون على استعداد بتكريس نفسه للفتاة أو يتركها وينصرف . وليس هناك اختيار آخر .

وهكذا الحال بالنسبة للمحبة التى يقدمها الله لنا . إنها تحفزنا لكى نقرر . تذكر أنه الله الذى يحبك هكذا ، الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه ، الله الشخصى ، الله الذي يقدم لك روحه القدوس لكى تدخل إلى العمق ، فيقويك وينمى شخصيتك . إنه الإله الذى يعرفك تماماً لأنه صنعك ، ومع ذلك فهو يحبك إلى الحد الذى جعله يبذل نفسه لأجلك . إن الرسول بولس لم يستطع أن يقاوم الحافز الشخصى لهذه المحبة ، فصاح قائلاً :« الذى أحبنى وأسلم نفسه لأجلى » (غل ٢ : ٢٠) .

ما الذى تفعله بمحبة الله هذه ؟ ألم يحن وقت اتخاذ القرار ؟ ربما تحاول أن تجعله بعيداً عنك ؟ ربما تتمرد عليه عامداً متعمداً ، ربما لسنين طويلة ؟ هل تستمر فى أن تسبب له الحزن

برفضك لمحبته الصافحة عن الذنب وتستمر فى خلافك معه ؟ . أم تريد لمحبة الله أن تغمر حياتك وتنبع من خلالك نحو الآخرين . هل تريده أن يدخل إلى حياتك ويطهرك ؟ إنه لن يفعل أى شئ حتى تطلب منه ، لأن المحبة لن تقتحم حياتنا أو تفرض نفسها علينا . المحبة تتأنى . المحبة تطلب رضا المحبوب . سوف أتحدث باستفاضة عن الاستجابة فى الفصل الأخير ، ولكن فلتلاحظ شيئاً آخر عن المحبة . إنها تنطبق على المحبة البشرية والمحبة الإلهية على حد سواء .

المحبة مؤثرة :

إن التاريخ ملئ بقصص تحكى كيف أن المحبة المثابرة نجحت أخيراً فى الوصول إلى هدفها واستجاب المحبوب . ونتج عن زواجهما جو أسرى يشيع محبة ، ويؤثر بقوة على كل الذين يزورون البيت . نعم ، إن محبة الله هكذا ، أيضاً فما أن نرحب بها ونقبلها بفهم - وليس قبل ذلك - حتى تبدأ فى التأثير فى الآخرين .

إنك تراها فى شخص مثل نيلسون مانديلا . فقد خضع لمحبة الله بينما كان سجيناً فى جزيرة روبن ، والنتائج واضحة لجميعنا . لم يكن هناك شعور بالمرارة مع أنه كان بإمكانه الاحتفاظ بالكثير منها . لم يكن يشيع سوى دفء المحبة التى يعرفها العالم أجمع وهو يفعل الكثير لشفاء جراح المجتمع فى جنوب أفريقيا . وتراها فى رجل مثل تشوك كولسون Chuck Colson ، الذى كان رجل المهام الصعبة وكان منصبه تالياً للرئيس فى البيت الأبيض ، وعلى الرغم من العار الذى لحق به ، ودخوله السجن بسبب تورطه فى فضيحة ووترجيت ، فإن اتجاه حياته قد تغير منذ أن استجاب لمحبة الله . إن الرب لم يتخل عن هذا المحامى المتعجرف ولكنه عامله برفق حتى سلّم حياته فى النهاية ، وما النتيجة ؟ منذ أن تحرر كرّس حياته لإنشاء وانتشار منظمة عالمية تدعى رابطة السجن ، وهى منظمة متخصصة فى تقديم الخبر السار عن محبة الله لجميع المساجين فى كل مكان ، ذلك الخبر الذى جعل منه إنساناً جديداً . إن كولسون هو أول من يستطيع أن يخبرك أننا لا نستطيع أن نسكب محبة الله فى قلوب الآخرين حتى تنسكب فى قلوبنا أولاً .

وهذا يأتى بنا من حيث بدأنا ، فيما يتعلق بالعلاقات البشرية والحب . لأنه ما أن نسمح لله

بأن يسكب في قلوبنا محبته المشبعة والدائمة والمضحية ، حتى تمتد هذه المحبة إلى علاقاتنا بما فيهم أصدقائنا وشركاء حياتنا . في هذه الحالة لا نكون مستعيدين لكتاب في قواعد السلوك ، ولن نكون أنانيين في تصرفاتنا . سوف لا يحتوى قاموس كلماتنا على عبارة « يجب أن أحصل على كذا وكذا » بل على عبارة « سوف أعطى » مادمنا قد سمحنا لمحبة المسيح أن تحصرنا . سوف نرفض رفضاً باتاً أن نستغل الآخرين أو نجرح كرامتهم أو نخدعهم . سوف يكون هناك أقل قدر من الإشباع الفورى للحاجات وأكبر قدر من بذل النفس . هذه هي الطريقة التي نصبح بها أكثر إنسانية في علاقاتنا .

ومن الشيق أن نعرف أن عدداً كبيراً من الناس ، وبخاصة الشباب ، قد بدأوا التحرك في هذا الاتجاه ، منذ سنين مضت انفجرت مارلين مونرو غاضبة « إن رمز الجنس يصبح شيئاً . وأنا أكره أن أكون شيئاً » . وكلنا نحمل نفس الشعور . عبر الروائي الأمريكي والناقد الاجتماعي اين راند (Ayn Rand) عن ذلك في مقابلة مع مندوب مجلة بلاى بوى « إني اعتبر الممارسات الجنسية غير المشروعة لا أخلاقية ، ليس لأن الجنس شر بل لأنه صالح وهام جداً » . وقد توصل إريك كلابتون (Eric Clapton) إلى نفس الاكتشاف :

« لقد اكتشفت عند عودتي للطريق المستقيم أني كنت أستخدم الجنس كوسيلة لتحقيق غرض ما ، كوسيلة لفرض السيطرة على شخص آخر ، ولإحداث انطباع معين ، أو تحقيق التوازن بالنسبة لي أو له . لم يكن الجنس أبداً يستخدم في الغرض الذي خُصص له ، أي كتعبير عن الحب كوسيلة لاستمرار وجودنا على الأرض . ولكن اكتشفت أني أكون أسعد حالاً لو أني استخدمته في علاقة زوجية مع امرأة واحدة ، وأنه ليس هناك خداع أو أكاذيب وأنه تعبير نقى عن العاطفة » .

أما الكاتب بيتر ويلكس (Peter Wilkes) فهو أكثر حدة حين يقول :

يقول الجنس « إني أهب نفسي لك » بينما يقوم الزواج بالهبة الفعلية . إن الجنس يتشبه بالزواج . فالزواج هو بذل النفس الحقيقي . وفي إطاره يعبر الجنس عن هذا الالتزام الذي تعهد به

الزوجان علناً كل منهما للآخر . وخارج إطار الزواج يعتبر الجنس مجرد أكذوبة . إنه يقول « أقدم نفسي لك » ، ولكنه ينكر الحقيقة ، لأنك لا تعتبر متزوجاً حتى تتزوج بالفعل » .

كلنا نعلم صعوبة الاتجاه فى نفس الطريق الذى يرشد إليه هذان الاقتباسان . فمن الصعب ، على الرغم أنه من الممكن أن نقول « لا » ونمارس ضبط النفس .

ونتذكر وودى آلان مرة أخرى الذى قال : « أريد أن أخبرك بقصة رائعة عن منع الحمل دون تناول حبوب منع الحمل . فقد طلبت من هذه الفتاة أن نمارس الجنس فقالت لى (كلا) .

إن نسبة كبيرة من الشباب اليوم لديهم الشجاعة أن يقولوا هكذا – ليس لأن الجنس سيئ ولكن لأنه أثمن شئ لدينا ، إنه لا يصح أن يدنس . وعلى الرغم أن هذا الجيل بدءاً من الثامنة عشرة إلى الخامسة والعشرين قد نشأ فى جو متساهل ، إلا أنه يدرك جيداً لأخطار عدم الانضباط الجنسي . ومع أنهم قد تعرضوا للإفساد في سنوات نموهم ، ونتج عن ذلك بالضرورة أن أصبحت لهم دراية بالمواقف الخطيرة والصعبة فى المدن الكبرى ، وقد فقدوا الثقة أيضاً فى كل المؤسسات ، إلا أنهم يتطلعون بالفطرة نحو العلاقات الشخصية التى تتسم بالأمانة والالتزام العميق . هذه فطرة سليمة وهى تتفق إلى حد كبير مع القناعة المسيحية بأن المحبة هى التى تسيِّر دفة هذا العالم ، وأن المحبة نابعة من الله الذى يجسِّدها بالتمام . إن هذه المحبة شخصية وطاهرة ومضحية ودائمة ، وهى مشبعة تماماً . أعتقد أن يسوع يمكن أن يقول للمحبين من هذا الطراز « إنكم لستم بعيدين عن ملكوت الله » .

ولكن لا يزال أمامنا الاختيار . هل نفسح المجال لمحبة من هذا النمط فى علاقاتنا ، محبة يمكن أن نحصل عليها حالما ننفتح على المحب الأعظم ؟ أم نمشى فى ركاب الجماهير ، ونعتبر أن العلاقات وُجدت لتُستغل ، والجنس وُجد لنلهو به ؟ لقد شاهدت مقابلة تليفزيونية مع هيو هفنر (Hugh Heffner) ، مؤسس ومحرر مجلة (بلاى بوى) . وهو شخصياً صورة

مجسمة لفلسفة البلاى بوى * عن الجنس ونمط حياته . وقد صرح أنه مارس الجنس مع أكثر من ألف فتاة . فإذا كان الجنس ألعوبة ولا يعنى شيئاً سوى المتعة الجنسية ، فدعنا نتبع هيو هفنز . وإذا كان فريضة مقدسة ويعنى أن يبذل كل طرف نفسه لأجل الآخر ، فدعنا نتبع يسوع المسيح . والخيار لنا .

* فلسفة البلاى بوى هى فلسفة المجون والاستمتاع بالجنس دون رادع أو ضابط (المترجم)

الفصل العاشر

الاختيارات

إنى أكره اتخاذ القرارات ، ولكن لسوء الحظ فهى ضرورية . وفى الغالب فهى تحدد المستقبل لمدة طويلة قادمة . أتذكر الوقت الذى كان علىَّ فيه أن أفاضل بين اللغات الحديثة والكلاسيكية فى المستوى العادى . وقد اخترت اللغات الكلاسيكية لأسباب كنت أفترض أنها جيدة فى ذلك الوقت . كل ما أعرفه أن حياتى كان يمكن أن تكون مختلفة تماماً لو أننى اخترت الاتجاه الآخر .

وحين كنت فى الجامعة رأيت عدداً كبيراً من الناس يتخذون قراراً واعياً باتِّباع يسوع المسيح، ورأيت أناساً يقررون عدم اتِّباعه . وكان ذلك دائماً يمثل بالنسبة لى فارقاً كبيراً ، وأذكر رجلاً كان فى صراع مع هذه القضية حين كنا نتحدث بشأنها فى ليلة ما ، وكان واضحاً فى صباح اليوم التالى أنه قد توصل إلى قرار ، وكان قراره الابتعاد عن يسوع المسيح . وقد دهشت فى الشهور التى تلت ذلك أن أرى حياته تعانى من الانهيار ، فالكلية قد سحبت منه المنحة الدراسية ، وانهارت حياته .وإنى لا أعرف بالطبع ، إن كانت هذه الأشياء لها صلة بقراره هذا أم لا ، إلا أنى أعتقد أن الأمر كذلك . كان قد أعد العدة لكل شئ ، ورتب أموره لتمضى على هذا المنوال . لقد حاولت نسيان هذا الأمر ولكنى لم أستطع .

وأعتقد أن بعضاً منكم ، إذا استمروا في قرائتهم لهذا الكتاب ، سوف يدركون أنه قد حان الوقت لاتخاذ قراركم بشأن يسوع الناصرى . إن أول كلمات مدوَّنة له فى الأناجيل هى هذه : « حان الوقت واقترب ملكوت السموات . غيروا طرقكم وآمنوا بالأخبار السارة » ، وأتبع ذلك بهذا التحدى الشخصى « تعال واتبعنى » .

إنى أجد أنه من الطريف أن يسوع لم يأت ليعلن عن **الكنيسة** . فعلى الرغم أنه من المهم أن

يجتمع المسيحيون معاً ، إلا أن الذهاب للكنيسة وحده لا يجعلك مسيحياً .

ولا يقول لهم يسوع إنهم يجب أن يؤمنوا **بالعقائد** . كان لإسرائيل عقائد واضحة المعالم ، ولكن كان من الممكن ، في الماضي كما في الحاضر ، أن تتمتم بالأصوات الصحيحة دون أن تلزم نفسك بها التزاماً شخصياً . هناك فروق هائلة بين أن تقول « إني أؤمن بأن حزب العمل سوف يكسب الانتخابات القادمة » و « أنا أؤمن بحزب العمل » .إن النطق بالعقيدة لا يجعلك مسيحياً .

وبالمثل ، فيسوع لا يأتي معلناً أي احتفال بطقوس دينية للدخول في الدين الجديد . لقد فعل يوحنا المعمدان ذلك ولكن ليس يسوع . إن الاحتفالات الطقسية لها دور هام في حياتنا ، ولكنها لا تغير أي شئ في حد ذاتها . والمسيحيون يحتفلون بطقس أولي هو العماد ، وهو هام جداً . ولكن كما أن القبلة يمكن أن تكون شيئاً رسمياً وليس تعبيراً عن التزام عاطفي ، فهكذا العماد ، لأنه وحده لا يجعلك مسيحياً .

إن المسيحية الحقيقية هي علاقة شركة مع يسوع المسيح . هذا ما نحتاج لإقراره .

اختر طريق الصعود إلى أعلى :

يقدم لنا يسوع الكثير من الأشياء الجذابة . فكما رأينا أكثر من مرة في هذه الصفحات ، أن يسوع يجسد أكبر **مثال** جذاب لنا لكي نحاول أن نتبعه ، فهو بالحق نور العالم ونحن لا يمكننا أن نفعل شيئاً سوى أن نسير في إثر خطواته .

إنه يقدم لنا **الغفران** إزاء الأشياء المظلمة في حياتنا والتي يصعب أن نعترف بها حتى لأنفسنا . لا أحد يقدم لنا ذلك ، لأنه لا أحد آخر قد دفع الثمن . فهذا ما فعله لأجل كل واحد فينا على الصليب . كل ما علينا فقط هو أن نأتي ونطالب بنصيبنا في هذا الثمن المدفوع . ويا له من ارتياح نشعر به عندما نفعل ذلك ؟ .

ويقدم لنا يسوع **الصحبة** . إنه الشخص الذي قهر الموت ، الشخص الذي عاد من القبر .

والموت لا يمكن أن يلمسه مرة أخرى : فقد انتصر عليه . ولأنه حي يستطيع أن يأتي ليشاركنا حياتنا . أي صديق آخر يستطيع أن يفعل ذلك ؟

ويقدم لنا يسوع **المعنى** . إن عدداً كبيراً من الناس في هذه الأيام يشعرون بالضآلة المتناهية في مواجهة القوى البيئية والمجتمعية والاقتصادية التي تجعلنا نبدو كالأقزام . ولكن الله لا ينظر إلينا بهذه الطريقة . إنه يرانا كأبناء وبنات قد تبنانا ضمن عائلته الملكية . إنه يرانا كأشخاص قد رضي أن يموت عنهم ، كأشخاص أعزاء على قلبه . فلنا أن نرفع رؤوسنا عالياً .

ويقدم لنا يسوع **هدفاً** في الحياة . عندما نكون صغاراً ، يكون لدينا كل أنواع الأهداف ، نحقق بعضاً منها ونفشل في تحقيق البعض الآخر . ولكن ما الهدف من الحياة ذاتها ؟ يقدم لنا الكتاب المقدس إجابة مذهلة . إن الهدف من الحياة أن نعرف الإله الحي ونتمتع به إلى الأبد وأن نصبح مندوبين عنه في عالم لا يريد أن يعرفه على وجه العموم . إننا مدعوون لنكون سفراء له ، وعاملين لأجله . إنه شرف كبير .

يقدم لنا يسوع **تحدياً** . إننا نحب التحديات – أن نتسلق جبلاً أو نواجه اختباراً للتحمل . ولكن هذه الأشياء قصيرة الأجل نسبياً . إن التحدي الذي يقدمه يسوع لنا يدوم مدى الحياة ، أن نأتي ونتبعه يوماً بيوم ، أن نأتي مهما تكن الظروف ، ونتبعه حتى النفس الأخير . قد يكون ذلك صعباً ولكنه شئ جدير بالاستحقاق .

هناك شئ آخر . يسوع يقدم لنا **حياة بعد القبر** . إنه الشخص الوحيد في كل التاريخ والذي كسر حاجز الموت وقام إلى حياة جديدة في أحد القيامة يعرض علينا أن نذهب إلى بيته حين تنتهي هذه الحياة . إنه عرض جيد . فلا عجب أن الحكماء من الرجال والنساء هم الذين يتبعونه .

ولكن هناك ثمن ندفعه لكل شئ قيّم في الحياة . وهناك ثمن مكلف يجب أن يُدفع ثمناً للحياة المسيحية . عبَّر أحد الحكماء عن ذلك بالقول : « إن أجر الدخول إلى الحياة المسيحية لا شئ على الإطلاق – ولكن الاشتراك السنوي يكلفك كل ما عندك » . إن ثمن خلاصنا قد دفعه المسيح على الصليب ، وبعض الناس لا يصبحون أتباعاً له بالمرة لأنهم يستنكفون أن يقبلوا

هدية . ولكن ما أن تستجيب ليسوع حتى تجد أنك قد أصبحت تلميذاً له ومن شعبه .

انها سوف تكلفك ترك خطاياك : إن يسوع يدعونا للتوبة أو تغيير الاتجاه . وهذا يعنى أن نودع إلى الأبد كل شئ فى حياتنا نعلم أنه خطية . وهذا لا يعنى أننا لن نسقط فى الخطية مرة أخرى فكلنا نفعل ذلك من آن لآخر . ولكن ذلك يعنى أنك قد غيرت الاتجاه عامداً متعمداً . إنك لا تستطيع أن تخلص نفسك من عثراتك ، فإن كنت تستطيع ذلك فأنت لست بحاجة ليسوع . إن يسوع يستطيع أن يخلصك منها ، ولكن عليك أن تتيح له المجال ليفعل ذلك . أنت لا يمكنك أن تتخذ يسوع مخلصاً لك وتتمسك فى نفس الوقت بشدة بالأشياء الرديئة فى حياتك والتى يريد أن يحررك منها .

وسوف تكلفك التخلى عن أنانيتك : نحرص جميعاً على استقلاليتنا . ونحب أن ندير حياتنا وفقاً لما نحب . وعندما يقابلنا يسوع ، فهو يأتى كرب وسيد ، وكمخلص وصديق . وباختصار ، فهو المعلم ونحن الذين نتعلم عند قدميه . وقد نجد أن ذلك صعب بالنسبة لنا . ولكنه يعنى الكثير ، أليس كذلك ؟ على أى حال ، فهو يعرفك تماماً من الداخل والخارج ، ويعرف الأفضل لك وأين يمكن أن تلتقى مع أهدافه الصالحة . ولذا فلماذا لا تضع نفسك بلا تحفظ بين يديه ؟ قد تختلف معه بشأن أمر ما ، وتريد أن تسحب موافقتك المبدئية ، ولكن هل أنت على استعداد أن تقول من قلبك : «يارب ، تعال واستولى على كل حياتى . أريد أن أكون لك بالتمام وإلى الأبد ؟ » هذا ما يشتاق إليه . وبهذا الخضوع له ، وإن كان ذلك يبدو غريباً ، سوف تجد حرية ما كنت تحلم بها . لأنك لا تسلم نفسك لمؤسسة أو لدستور مكتوب ، بل لشخص يحبك بشدة ولن يضرك . إنه الشخص الذى يوثق فيه تماماً . إن ما لا يصلح هو الحياة المسيحية المنقسمة والتى تقدم لله نصف القلب فقط . لقد جربت ذلك ، ووجدت أنها حياة بائسة تماماً ! .

إنها سوف تكلفك أيضاً أن تكف عن الصمت : إننا نحب أن نعتقد أن ديانتنا هى أمر يخصنا فقط وأنها شئ لا نتحدث عنه . إنه ليس أمراً مطروحاً للاختيار لو بدأنا فى اتباع يسوع بجد . فقد حذرنا أننا إذا لم نعترف به أمام الناس ، فلن يعترف بنا أمام أبيه فى السماء . إنه

يدعونا لنكون شموعاً تنير الظلام من حولنا ، ولنكون ملحاً للعالم ، ومدينة موضوعة على جبل لا يمكن أخفاؤها . إن يسوع يبدو دائماً أنه يدعو الناس لاتخاذ قرار علنى بالتلمذه له . وهو قرار مفيد لنا بالفعل . فهو يساعدنا على الإفصاح عن حقيقة رغباتنا . من سمع عن جندى يخجل من ارتداء الزى ؟ لا تفكر أنه إذا بدأت اتِّباع يسوع ، فإنه يمكنك أن تجعل ذلك سراً من الأسرار . وعلى أى حال ، ما المنفعة التى تعود على المسيح من التلميذ السرى ؟ إنه يريد أناساً يبدأون فى تغيير المجتمع ، ولا يضايقهم أن يكونوا معروفين بأنهم من أتباع المسيح .

ولذا فإنه من المكلف أن تأتى وتتبعه . لا تخطئ تقدير الحسابات . ولكنه يكلفك أكثر لو رفضت دعوته . إن يسوع كان دائماً يذكر سامعيه أنه يتحتم عليهم تحمل عواقب قرارهم . فى إحدى أمثاله الشهيرة يدعو الجميع إلى وليمة الحياة المسيحية ، ولكنه يخبرنا فى نفس القصة أن الباب مغلق فى وجه من يرفضون الدعوة . هل يستعصى ذلك على الفهم ؟ إطلاقاً . فالله يعد كل شئ لنا لنأتى إلى حضرته ، وقد غُفرت خطايانا وتطهرنا - وكل شئ على حسابه الخاص . فإذا رفضنا الوسيلة التى أعدها لنا بسخاء ، فكيف يمكننا أن نطالب برحمته ؟ فلو احتقرنا محبته ، فلا نلوم إلا أنفسنا لعدم السماح لنا بدخول الوليمة . إننا بحاجة للاختيار .

اختر الترحيب بيسوع :

ذكرنا مراراً وتكراراً فى هذا الكتاب أننا بحاجة لاتخاذ قرار حاسم فيما إذا كنا نسلم أنفسنا ليسوع المسيح أم لا . وربما تساءلت كيف يمكن أن نفعل ذلك . إنه ليس أمراً صعباً . تعال إليه تماماً كما أنت دون أن تحاول إخفاء عيوبك وإصلاح نفسك . تعال فى الحال - فالتأجيل يمكن أن يكون سارقاً - ليس للوقت فقط - بل للأبدية أيضاً . تعال ببساطة وإخلاص وأخبره أنك تريد أن تكون تابعاً له .

هناك آية شهيرة فى الكتاب المقدس قد ساعدت الملايين على الإتيان ليسوع واتِّباعه . إنى أحبها لأنها قد جاءت بى إليه عندما كنت مضطرباً بشأن كيفية أن أبدأ معه بداية حماسية . وهذه الآية تقول : « هأنذا واقف على الباب وأقرع . إن سمع أحد صوتى وفتح الباب ، أدخل إليه

أتعشى معه وهو معى » (رؤ ٣ : ٢٠) . هذا هو عرض يسوع نفسه . فكما لو كانت حياتنا بيت . لقد صنع يسوع ذلك البيت فى المقام الأول . واشتراه ثانية عندما سرقناه منه . ولذا فهذا البيت ملك له مرتين ، ولكنه لم يجبرنا على شئ . إنه ينتظرنا حتى نلبى الدعوة . ووجه العجب فى ذلك أنه يعرض أن يدخل ويشاركنا البيت إذا دعوناه ليفعل ذلك .

والقرينة شيقة جداً . فهذه الكلمات وجهت لأناس من الكنيسة كانوا يعيشون فى مدينة تدعى لاودكية كانت مزدهرة مادياً ، ومن المرجح أن الكنيسة كانت كذلك أيضاً ، لأن ملاكها كان يفتخر قائلاً « إنى أنا غنى وقد استغنيت ولا حاجة لى إلى شئ » . ذلك هو نوع الاتجاه الموجود عند الكثيرين اليوم « لا تربكنى إنى على ما يرام » .إن يسوع يخبرهم أنهم ليسوا كذلك على الإطلاق .إنهم « أشقياء وبؤساء وفقراء وعميان وعريانون » . هذه هى رؤيته لهم : مغرورون إلى حد كبير ولكنهم فى احتياج حقيقى ، وهم يتركون المسيح فى غباء ، مع أنه الواهب لكل شئ لهم ، خارجاً . إن لديهم كل شئ فى المسيحية ماعدا قلبها ، علاقة شخصية مع يسوع نفسه . ولهذا السبب يقول لهم إنهم بحاجة لتغيير الاتجاه ليسمحوا له بالدخول . وهو يعد بأنهم إذا طلبوا منه الدخول ، فإنه سيدخل إليهم . إنه لن يزورهم مجرد زيارة للمجاملة ، إنه سيبقى معهم إلى الأبد . لن يكون الوقت الذى يقضيه معهم بائساً ، إنه سيكون وقت وليمة فاخرة .

والشئ الرائع بخصوص هذا الوعد أنه ليس مجرد تشبيه أو استعارة عندما نأتى تائبين ونتعهد بتقديم حياتنا ليسوع المسيح ، فهو فى الحقيقة يدخل إلينا بحضوره غير المنظور الذى ندعوه الروح القدس . وهذا ما يجعل الشخص مسيحياً حقيقياً . ربما أكون معمداً ، وذلك مهم : إنه شارة الانتماء وقد أؤمن بكل شئ فى عقلى ، وذلك هام أيضاً ، لأننا بحاجة لنكون واضحين فيما نعمله . ولكن العلامة الثالثة والأكثر أهمية للدلالة على صيرورتنا مسيحيين هى أن ندعو روح يسوع ليدخل ويصنع منزلاً بيننا . فلو لم أفعل ذلك بعد ، فأنا لست مسيحياً بمعنى الكلمة: « إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له » (رو ٨ : ٩) . هكذا قال الرسول بولس ولابد أنه يعرف !

هذه هى البداية . علينا أن نختار فإما أن نرحب بروح يسوع القدوس غير المنظور لكى يدخل إلى داخل ذواتنا أو لا نرحب به . هذا اختيارنا ، إنه أهم اختيار نتخذه فى كل حياتنا . وإذا صليت صلاة فى خشوع وامتنان للمسيح المحب الذى يشتاق لهذا اليوم ،وأعلنت فيها خضوعك . وتسليم حياتك له ، فإنه سوف يأتى إليك ، وهو يعد قائلاً : « لا أهملك ولا أتركك » (عب ١٣ : ٥). إن الأمر بسيط للغاية . فإن أتيت له فإنه سوف يأتى إليك ، وليس هناك أى احتمال أن يرفضك ، فهو يعد قائلاً « من يقبل إلىَّ لا أخرجه خارجاً » (يو ٦ : ٣٧) . ولذا فأنت فى أمان معه . وسوف تجد أن حياة جديدة قد بدأت فيك ، حياة تكون أنت فيها فى المسيح وهو فيك. «إذاً إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة ، الأشياء العتيقة قد مضت . هوذا الكل قد صار جديداً » (٢ كو ٥ : ١٧) . هذا هو طريق البداية ، عندما يكون الوقت قد حان لاتخاذ القرار .

ربما لا تكون واثقاً إن كنت قد اتخذت هذا التعهد وصليت تلك الصلاة أم لا . لماذا لا تفعل ذلك الآن ، وتتأكد بنفسك ؟ أخبره عن شعورك ، بكلمات من عندك ، أو إذا أردت صلِّ شيئاً كهذا :

« يارب يسوع المسيح ، إنى أدرك أن هناك الكثير من الخطايا التى تؤلمك كثيراً فى حياتى . إنى أريد أن أتركها خلف ظهرى . إنى لست واثقاً إن كنت قد سلمت حياتى لك من قبل أم لا . ولكن على أى حال سوف أؤكد ذلك الآن . إنى أؤمن أنك مت وقمت ثانية حتى تكون مخلّصى وربى . أشكرك لأجل عرضك الرائع بأن تأتى إلى حياتى ولا تتركنى أبداً . « فهنا والآن ، يايسوع ، أطلب منك أن تأتى وتقيم فى حياتى اليوم ودائماً . من فضلك أعطنى الشجاعة والقوة التى أريدها حتى أستطيع أن أتبعك إتّباعاً صحيحاً . آمين » .

إنك سوف تجد أن هذا أفضل قرار اتخذته ، وهو على الأرجح أصعب القرارات التى اتخذتها أيضاً ! .

اختر الثقة بمواعيده، وليس الثقة بمشاعرك :

عندما نبدأ فى اتّباع يسوع فإننا نصبح فى عداء مع قوة كبرى ، ونتخذ صديقاً عظيماً . العدو هو الشيطان ، ربما لا تؤمن به الآن ، لا يهم ، سوف تكتشف حالاً قوته. إنه لا يسر أبداً لوقوفك إلى جانب المسيح . فإذا لم يستطع أن يرجعك إليه ، فسوف يبذل كل ما فى وسعه ليجعلك تسقط .

وأول هجوم من قبل الشيطان سوف يكون باستخدام سلاح الشك بالتأكيد . كيف أتأكد أن المسيح قد قبلنى ؟ ماذا لو لم يحدث أى اختلاف ؟ تشجع . إن كل واحد تقريباً يواجه بهذه الشكوك ، فهى شئ عادى . ولكن أهم شئ أن نتعلم كيف نتعامل معها ، فلو كنا نعتمد على المشاعر وحدها ، فسوف نقع فى مأزق خطير . فمن غير المحتمل أن نشعر بصحبة المسيح لنا عندما نصاب بارتفاع حاد فى درجة الحرارة مثلاً أو عندما نعانى من صداع شديد . ولكن الحقائق لا تغيرها المشاعر – على الرغم من أن استمتاعنا بها يفعل ذلك . والحقائق بسيطة .

أولاً : إن الله الآب يعد بأن يرحب بكل من يقبل يسوع « أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله » (يو ١ : ١٢) . والله لا يخل بمواعيده . هل قبلته ؟ إذن فأنت فى عائلة الله .

ثانيا : دعنا نوضح موضوع الشر أو «الخطية» ، كما يدعوها المسيحيون . العهد الجديد يستعمل ثلاث كلمات رئيسية لها فى اليونانية الأصلية يمكن ترجمتها « نقيصة» ، و«إساءة»، و«عصيان». لقد عجزنا عن الوصول للمقاييس الإلهية، وخالفنا نواميسه ، وتمردنا على محبته. وهذا حتماً يضعنا فى خلاف معه . ويجعلنا مذنبين . ولكن عندما سلمنا أنفسنا ليسوع ، بدأت الأمور تتغير . ولكن أن نصل إلى قياس قامة ملء المسيح فهذا يتطلب وقتاً طويلاً ، ولكن التعامل مع العيوب يتم فى الحال . فعلى الصليب دفع يسوع ديوننا بالكامل ، ومسحت خطايانا . ولكن من الحيل المحببة إلى الشيطان أن يذكرنا بعثراتنا الماضية ويخبرنا بما ارتكبناه من ذنب « هل أنت مسيحى ؟ لا تخدع نفسك ، ها أنت قد ارتكبت الخطية مرة أخرى » ، هذا

النوع من الهجوم يضعف روحنا المعنوية حتى نتعلم أن نواجه العدو بالحقيقة الموضوعية عن موت المسيح . قل له إنك تعلم أنك تمثل مشكلة كبرى ، ولكن المسيح حمل عنك خطاياك فى جسده على الخشبة وليس هناك ما يدعو لتكرار ذلك . قل للمجرب أن يذهب إلى الهلاك . فسرعان ما يكف عن تجربتك لكى تشك أنك مسيحى . وله الكثير من الحيل الأخرى ! .

ثالثا : لقد أعطينا الروح القدس والله لا يلغى عطاياه . إن عمل الروح أن يؤكد أننا ننتمى إليه . « الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله . فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً – ورثة الله ووارثون مع المسيح » (رو ٨ : ١٦) .

يبدو هذا جميلاً ، ولكن كيف يمكن للروح أن يشعرنا بوجوده ؟ هناك العديد من الطرق يحكى لنا الرسول يوحنا عنها فى رسالته الأولى .

هناك إحساس جديد بالغفران : إحساس رائع أننا أنقياء « إن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا » (١ يو ٢ : ١و٢) .

وهناك رغبة جديدة لإرضاء الله : من قبل لم أكن أبالى إن كنت أرضى الله أم لا أرضيه . ولكنى الآن أهتم بذلك كثيراً . فأنا لا أريد أن أؤذى مشاعر الشخص الذى أحبه . وهذا دليل على التغيير الداخلى . « بهذا نعرف أننا فيه : من قال إنه ثابت فيه ينبغى أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضاً » (١ يو ٢ : ٥ و ٦) .

هناك موقف جديد من الآخرين : كل من لا يفعل البر فليس من الله وكذا من لا يحب أخاه » . وأيضاً « من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه» (١ يو ٣ : ١٠و ١٧) .

هناك تقدير جديد للشركة المسيحية : « نحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة » (١ يو ٣ : ١٤) . إن يوحنا يتحدث عن رفاقه من المسيحيين . ربما كانوا يبدون لنا من قبل أنهم مجموعة ذات أطوار غريبة من البشر ، ولكن بعد أن نلبى دعوة المسيح ، نبدأ فى أن

نجد أنفسنا نرغب رغبة حقيقية أن نكون معهم ، ونتعلم منهم ونشجع بعضنا بعضاً . فالطيور على أشكالها تقع .

هناك قوة جديدة للتغلب على الشر : «كل من يثبت فيه لا يخطئ» كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ لأن « الذى فيك أعظم من الذى فى العالم » (١يو٣:٦و٤:٤). من هنا يتبين تعامل الله مع الشر ، لقد قهره وتحمل عقوبته مرة وإلى الأبد عنا جميعاً على الصليب . ولكنه يحررنا تدريجياً من قوة الشر عن طريق قوته المغيِّرة غير المنظورة ، التى يدعوها المسيحيون الروح القدس . لأنه ما أن تقول «نعم» للمسيح حتى يدخل الروح القدس إلى حياتنا ويصبح ساكناً مستديماً فيها . وهو أقوى من قوى الشر التى خضعنا لها . وهو سوف يعطينا تلك القوة على الغلبة إذا صرخنا إليه طالبين العون عندما نتعرض للتجربة .

هناك فرح جديد وثقة : لا حاجة بنا إلى القول إنه على المسيحيين اجتياز أوقات من الألم والحزن كالآخرين تماماً .ولكن هناك فرح داخلى برغم ذلك . وذلك الفرح ينبع من الشركة مع الرب والمعونة من شعبه ، ويشير الرسول إليه فى الأعداد الأولى من رسالته : « نكتب إليكم هذا لكى يكون فرحكم كاملاً » (١ يو ١ : ٣ و ٤) .

هناك اختبار جديد للصلاة المستجابة : ربما صلينا من قبل (معظم الناس تفعل ذلك) ولكننا لم نكن متأكدين أن الصلاة قد استجيبت . ولكن ما أن نرتبط بيسوع الذى مات وقام ثانية ، فإن ذلك الحاجز الصوتى من الخطية والاغتراب عن الله والذى كان يقف حائلاً بيننا وبين الله ويشعرنا أننا نصلى لأنفسنا ، يكون قد تم اختراقه . فالصلاة سوف تتحول بالتدريج إلى شركة مع الله . سوف نسر بأن نشركه معنا فى كل شئ ، وتبدأ إجابات الله تتوارد إلينا « وهذه هى الثقة التى لنا عنده أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا . وإن كنا نعلم أنه مهما طلبنا يسمع لنا نعلم أن لنا الطلبات التى طلبناها منه » (١ يو ٥ : ١٤ و ١٥) . إننا بالطبع لا نحصل على كل ما نطلبه . ولكن تكون عندنا ثقة بأن صلواتنا قد سمعت . والله سوف يستجيب وفقاً لما يراه ملائماً .

يلخص يوحنا ذلك بطريقة مبهجة ، فكأنه يقول بالفعل : « إن كنت تصدق إنساناً عندما يعدك بشئ ، فكم بالأحرى ينبغى أن تصدق الله ؟ وإذا لم تفعل ، فأنت تدعو الله كاذباً » .وهذه هى كلمة الله الجادة : « الله أعطانا حياة أبدية وهذه الحياة هى فى ابنه . من له الابن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة » (١يو ٥ : ١٠ -١٢) . أليس ذلك واضحاً بما فيه الكفاية ؟ فالحياة الروحية تتوقف على استجابتك أو عدم استجابتك لدعوة يسوع بتسليم حياتك له . فإن كان لك الابن واستلم هو حياتك ، تكون لك الحياة الأبدية . إن الحياة الأبدية سوف لا تكون لك عندما تموت ، بل إنك فى هذه الحالة تكون قد حصلت عليها بالفعل . فلا عجب لذلك أن يقول يوحنا « كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم ابن الله لكى تعلموا أن لكم حياة أبدية » (١ يو ٥ : ١٣) .

فأمام كل منا ، أنا وأنت ، اختياران . أن نعتمد على مشاعرنا المتغيرة وغير الثابتة أو أن نصدق ما يقوله الله . الاختيار الأخير هو الطريق للثقة . وما لم نثق أننا أولاده ، لا تكون لدينا الفرصة الحقيقية للنمو فى الحياة المسيحية .

اختر النمو :

من المحزن أن ترى شخصاً توقف عن النمو. قد يكون قزماً أو شخصاً ظلت قواه العقلية كالطفل . ولسوء الحظ ، يوجد فى العائلة المسيحية كثيرون توقفوا عن النمو . إنهم بدأوا سيرهم مع المسيح ولكنهم لم يستمروا فى إعطائه الأولوية ، ولذا فإنهم لم يتوصلوا لحياة النضج المسيحى . وهكذا ، أمامك الاختيار . فليس هناك إجبار علينا بصدد ذلك بعد أن نصبح مسيحيين ، تماماً كما لم يكن علينا إجبار أن نكون مسيحيين .

إن الله يقدم لنا وسائل عديدة للنمو . وهناك كثير من الكتابات فى هذا الموضوع . وسوف أكتفى الآن بكتابة العناوين الرئيسية .

إنه يقدم لنا شهادة . إنها شهادة تبين لمن ننتمى . وهى شهادة المعمودية بالطبع ، الشهادة المسيحية بالعضوية . هناك الجانب الداخلى للانتماء عندما نسلم حياتنا للمسيح . ولكن يمكن

مقارنة ذلك بالجانب الخارجي ، عندما نظهر للعالم أننا لا نخجل أن نكون تلاميذ للمسيح . فإذا سلمت حياتك سراً للمسيح ، فأنت بحاجة لكي تؤكد أنك معمَّد علناً . فالمعمودية أشبه ما تكون بأوراق التبني لطفل فقير عند الترحيب به لكي يكون ضمن عائلة محبة . وهي كشهادة المواطنة التي تستخدمها معظم الدول . وهي كالعقد الذي توقعه عادة عند حصولك على وظيفة جديدة . فأنت ترى أن لها جانبان . إنها تعني التعهد بكل ما يقدمه الله لنا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى إنها تعهد بالاستجابة الشاكرة له من كل القلب .

إننا بحاجة لهذه العلاقة الملموسة من الانتماء . إنها جزء هام من صيرورتنا مسيحيين ، يكون من السهل في يوم سيئ أن نشك إن كنا جادين حقاً عندما طلبنا من المسيح أن يدخل حياتنا أم لا . هل كان إيماننا قوياً بما فيه الكفاية ؟ حسناً ، هنا تؤكد المعمودية انتماءنا للمسيح .

إن العروس الصغيرة قد تجد نفسها تتساءل متكاسلة وهي نصف نائمة إن كانت متزوجة حقاً أم أنها تحلم . ولذا فعليها أن تتحسس خاتم زواجها حتى تتأكد . إن المعمودية هي خاتم الزواج .

والكندي الذي يعبر الحدود إلى الولايات المتحدة سوف يتعرض للسؤال عن جنسيته ، فما عليه إلا أن يظهر بطاقته الشخصية لإثبات ذلك .إن المعمودية بمثابة شهادة الجنسية .

وقد تتساءل الطفلة المتبناة في بعض الأوقات إن كانت تنتمي لهذه العائلة أم لا . إن المعمودية هي شهادة التبني .

ولهذا السبب فالمعمودية هامة جداً ، إنها ليست مجرد علامة للآخرين بأننا مسيحيون : فالقصد منها أن تكون مصدراً لتأكيد قوي لأنفسنا .

إنه يقدم لنا خريطة :، والخريطة بالطبع هي الكتاب المقدس . إنها خريطة مفصلة وتوضيحية لكيفية التقدم في حياتنا حتى نلتقي مع الرب في السماء . إنها مرشد وافٍ ، يقدم لنا مواعيد ، وأمثلة نحتذي بها ، وتحذيرات نتنبه إليها ، وصلوات نصليها . وفوق الكل فهي تأتي بنا وجهاً لوجه مع الرب نفسه . فهو الذي أوحى إلينا بهذا الكتاب . إنه لا يكشف لنا فقط عن إرادته بل عن نفسه فوق صفحات الكتاب. هناك قول مأثور لمارتن لوثر عن سبب قراءة الكتاب المقدس

يقول فيه : « كما نقترب إلى المهد لكي نجد الطفل ، فهكذا نأتي إلى الكتب المقدسة حتى نجد المسيح » . أحياناً نجده كتاباً يتكلم إلينا ، عندمــا تبدو فقرة ما واضحة المعالم وتضربنا بشدة ، وأحيانا نجده أقرب ما يكون إلى معرض للصور عندما نرى ما فعله الله فى حياة الآخرين فى الماضى ، ونتعلم من ذلك . أحياناً نجده مصباحاً يضئ لنا جزءاً مظلماً من الطريق . وأحياناً يكون ناراً تشيع فينا الدفء ، وأحياناً أخرى مطرقة تحطم كبرياء غرورنا ، وأحياناً يكون طعاماً يغذينا روحياً ، وأحياناً أخرى مرآة ترينا أنفسنا على حقيقتها ، ثم يتخذ الإجراء المناسب ! هناك شئ واحد يبرز واضحاً على مدى التاريخ المسيحى فى كل أنحاء العالم ، تغذى على هذا الكتاب فتنمو ، وأهمله تظل قزماً روحياً . وعلينا أن نختار .

إنه يقدم لنا وليمة : إنى أشكر الله لأن يسوع لم يترك لنا خلفه مؤسسة كنسية تفرض آراءها بالقوة ، لقد ترك لنا وليمة لنتذكره بها ، ونلتقى به خلالها . أى شئ أبهج من ذلك ؟ إنها وليمة خاصة لأنها كوليمة الفصح اليهودى التى حلّت محلها بالنسبة لأتباع يسوع ، تتسم بعدد من السمات الخاصة بها .

وفى وليمة العشاء الربانى أتذكر الصليب بامتنان ، وتتجدد محبتى عندما أفكر فى الذبيحة التى قدمت عليه .

وأنظر إلى داخل نفسى ، وأرى النواحى التى تحتاج لعناية - ثم أعرضها على يسوع ليقدم لها علاجاً .

أتطلع إلى يسوع المقام وأطلب حضوره الذى يأتى بالفرح إلى القلــب ويهبنى القوة فى الطريق .

أتطلع إلى السماء ، إلى الوليمة النهائية عندما ينتهى هذا العالم - وأشكره لعنايته بى حتى ما وراء القبر .

ثم أنظر إلى العالم المحتاج ، الذى يتضور جوعاً لتلك الوليمة التى يقدمها ، على الرغم أنه لا يدرك عادة ذلك الجوع . وأعرف أنى مكلف بهذه الخدمة .

إن كل ذلك ليس موضوعاً شخصياً . فلا أحد يعمل هذه الوليمة من تلقاء نفسه . إنها وليمة نشترك فيها جميعنا مع مضيفنا . إنها أعجب وليمة فى العالم ، وهى تشبع نفوسنا تماماً . ولهذا السبب فمن المهم أن نشترك فيها بانتظام .

إنه يجتمع معنا : إنى أعمل مع رئيس أساقفة كنتربرى ، فنحن أصدقاء من سنين عديدة . ولكن على الرغم من ترحيبه ، إلا أنه يصعب جداً أن تدخل إليه لتراه هذه الأيام . فالمقابلات يجب أن يرتب لها مقدماً ، فهو ببساطة مشغول جداً .

ولكن الشئ العجيب ، أن الله ليس مشغولاً جداً لدرجة أنه لا يعطينا آذاناً صاغية . ففى كل أجزاء الكتاب المقدس تقدم لنا دعاوى لنلقى بأحمالنا عليه ، وهو يتعهد بأن يحملها . وقد أمرنا أن نسأل فنعطى ، وأن نطلب فنجد ، وأن نقرع فيفتح لنا . توجد فقرة جميلة فى أحد المزامير إذ نرى الله يدعونا لنلتقى به : « اطلبوا وجهى » فيرد المرنم « وجهك يارب أطلب » . إنى أجد أنه من الروعة بمكان أن يتيح لك الله ولى هذا الاقتراب غير المشروط إلى حضرته وهو لن يكون مشغولاً عنا ، ولن يتضايق لرؤيتنا . والعدو يكره الصلاة فهو يعرف تمام المعرفة أن الصلاة مصدر القوة الروحية .

لو أن ملكة بريطانيا قدمت لك فرصة لمقابلتها ، فإنى أراهن أنك ستقف أمامها مشدوهاً ولابساً أفضل ما عندك من ثياب ، مع شعورك بالإثارة الكاملة لهذا الامتياز . إن ملك الملوك يدعونا لنلتقى به ، وليس مرة واحدة فقط ولكن على أساس منتظم . إن أشهر ثلاث كلمات فى الكتاب المقدس كله هى : « صلوا بلا انقطاع » . إن هذا لا يعنى أننا يجب أن نصلى طوال النهار فهذا مستحيل . ولكنها تعنى بالتأكيد أننا نستطيع أن نصلى فى أى وقت ، وأنه علينا أن ننتفع بذلك الامتياز على الدوام .

يجد كثير من الناس أن كتب الصلوات تساعدهم ، وقراءة بعض أعداد الترنيم وترديدها يشكل فائدة كبرى ، خاصة عندما نشعر بشئ من الضعف فى حياتنا ، فهى تشكل إطاراً مفيداً يقدم لهم من قبل مسيحيين آخرين ، ولكن الرب أيضاً يريدنا أن نتكلم معه بأنفسنا من كل

قلوبنا . إنه يريد أن يسمعنا نسكب أحزاننا وأفراحنا فيميل بأذنيه نحونا . إنه يريد أن يعيش معنا ، وليس أقل من ذلك . إن الذين يعيشون معاً يتحدثون معاً ، أليس كذلك ؟ هكذا الحال مع الله . وإذا كنا نواظب فى أن نشركه معنا فى أفراحنا ، وطلباتنا ، وحمد قلوبنا ، واعترافاتنا ، فإننا سوف ننمو . بل إننا ننمو كثيراً حتى إننا نتعرف على صوته دوناً عن باقى الأصوات التى تصيح طلباً لجذب انتباهنا . فالاستماع لله ، والتفكير فيه ، والتأمل فى جماله وقداسته - هى بعض آفاق الروحانية التى يقودنا إليها عندما نكون مخلصين فى الصلاة . وشيئاً فشيئاً سوف نجد أننا نحبه ليس لأجل الخيرات التى يعطينا إياها ، إننا نحبه لذاته . من السهل جداً أن نضيع فرص الصلاة أو نستسلم للإغراء الماكر بأنها لا تفيدنا كثيراً بالفعل - فلماذا نعطيها كل هذه الأهمية ؟ وهنا مرة أخرى ، علينا أن نختار .

هو يقدم لنا مجتمعاً : حسناً قيل إن المسيحية التى لا تبدأ بالفرد لا تبدأ على الإطلاق ، ولكن المسيحية التى يقتصر دورها على الفرد تنتهى ولا تقوم لها قائمة . إن اتّباع يسوع عمل جماعى ، وليس رحلة فردية تبدأ من الفرد وتنتهى عنده . والكتاب المقدس يقدم لنا إحدى التشبيهات التى يصفنا فيها كأطفال فى عائلة . إننا نشعر بالحاجة - ولسنا أحراراً لكى نختار - لإخوتنا وأخواتنا . ويرانا العهد الجديد أحياناً كأغصان فى شجرة كبيرة أو كطوب فى مبنى أو جنود فى جيش ، أو أعضاء فى جسد . وهذه الصور دائماً جماعية : فأنت ترى أننا مدعوون إلى مجتمع جديد . وهذا هام جداً ، لأنه يقضى على اثنين من التصورات الشائعة الخاطئة :

أحدهما ، ذلك النمط الذى يقول بأنى أمثل الرجولة الحقة والقوة حيث أعمل جاهداً معتمداً على سواعدى وأفكارى الخاصة عن الله ، ولا أحتاج لأى شئ منك ، شكراً . إن هذا الموقف غير مسيحى إطلاقاً . فنحن لم نخلق لنكون جزراً منعزلة نتصور أننا يمكن أن نكون مستقلين . إن الله يخبرنا أننا لا يمكن أن نتصرف تصرفاً سليماً كمسيحيين مستقلين عن بعضنا البعض ، ولم يقصد الله أن نكون كذلك . إننا بحاجة لبعضنا البعض ولكن أن تصور أننا لسنا كذلك يعنى أن نفسح المجال للتعالى وهو مكروه لدى الله .

والتصور الخاطئ الثاني أن كل ما يهم المسيحية هو خلاص النفوس فحسب . إن العهد الجديد نادراً ما يقول ذلك . إنه يتحدث عن ملكوت الله ، المجتمع الذى حاول أن يجعل الله ملكاً على كل ميدان من ميادين الحياة اليومية ، سواء على الصعيد الفردى أو الجماعى على حد سواء . فالرب يريد بالتأكيد أن يأخذ بيدنا ويخلصنا وأن ينقذنا من الورطة التى أوقعنا أنفسنا فيها ويطهرنا . إنه يريد أن يعطينا بداية جديدة ، يكون زمام القيادة فيها له . ولكنه يريد أن يوجد مجتمعاً بديلاً للمجتمع الذى يتسيده الصراع المحموم الأنانى والذى يميز العالم الغربى . إنه لا يريد أن يغرس فينا النزعة الاستقلالية بل روح التعاون والتكاتف مع بعضنا البعض . إنه يريدنا أن نكون شعباً يضم كل الآراء والاتجاهات ويعكس ضياءه على الجالسين فى الظلمة . إنه يريدنا أن نكون شعباً عطوفاً فى عالم قاس . إنه يريدنا أن نظهر أنه فى الإمكان بالنسبة لنا ، ومما يجذب الآخرين ، أن نحيا حياة تتسم بالاستقامة والبذل والسخاء ومحبة الله والقريب . إن هذا لشئ لا يستطيع أن يفعله أحد من ذاته . إننا بحاجة لبعضنا البعض .

وأعتقد أننا نحتاج لهذه الروح الجماعية على ثلاثة أصعدة . فقد كانت جميعها جزءاً من اليهودية وانتقلت إلى المسيحية . **أولاً** ، هناك جماعة الأصدقاء الصغرى التى تجتمع فى أحد البيوت . **ثانياً** ، كان هناك المجمع الأسبوعى أو الاجتماع الكنسى للعبادة والتعليم . **ثالثاً** ، كان هناك الاحتفال الكبير كما كان يحدث فى الأعياد فى أورشليم عندما يجتمع أحياناً مليون أو أكثر من البشر .

على العموم ، فالكنيسة المعاصرة جيدة قياساً على نمط الاجتماع الأسبوعى فى المجمع ، حين يجتمع أفرادها صباح كل أحد . ولكنها ضعيفة على المستويين الآخرين . ففى العديد من الكنائس لا توجد الشركة التى تقوم على مستوى الاجتماعات المنزلية أبداً ، وهى حساسة بشكل ظاهر للاجتماع فى احتفال كبير فى تجمع يضم كنائس مختلفة . ومع ذلك ففى السنوات الأخيرة، تضاعفت التجمعات المنزلية بمعدل كبير ، وكونت منتدى طبيعياً يقدم الصداقة والطعام والصلاة والمشاركة فى أفراح وأتراح الحياة مع المسيحيين الآخرين ، وهذه التجمعات توفر أيضاً عدداً كبيراً لتقديم أى قوة عمل للخدمة العملية فى المجتمع .

أما عن التجمعات الكبرى ، فمن الإثارة أن نقوم بالعبادة مع آلاف البشر فى مؤتمر فى الهند أو نكون جزءاً من تجمع مسيحى كبير فى الأعياد كعيد الحصاد . لقد تأثرت العام الماضى حين شاركت فى المسيرة لأجل يسوع فى لندن ، وتخيل عدداً كبيراً مثل ٧٠ر٠٠٠ من البشر يملأون حديقة هايد بارك ويبتهجون فى حمد وهم يصلون ويرنمون ويرقصون ويقومون بالشهادة المفرحة للمسيح . إن مناسبات كهذه تذكرنا بأننا ننتمى إلى عائلة كبيرة فى كل أنحاء الكرة الأرضية - وعلى مر العصور .ونحن بحاجة لذلك ، خاصة إذا كانت كنيستنا المحلية صغيرة وكان هناك عدد قليل من المسيحيين الآخرين فى مكان عملنا .

أعتقد إننا بحاجة لكل المستويات الثلاثة من الشركة المسيحية ، حتى نكوّن نسيجاً جميلاً لله . وبالإضافة لذلك ، فقد وجد الكثيرون الحاجة لشريك منتظم فى الصلاة أو لصديق روحى خاص يمكن أن تشاركه أعمق الاختبارات . إننا بحاجة لأن نختار مقدار الشركة المسيحية التى نحتاج إليها والنمط الذى تتطلبه . إن الله يعطينا الحرية الكاملة للاختيار . إنه قرار هام ، لأن الشركة وسيلة حيوية للنمو .

اختر أن تكون ذا فائدة لله .

هناك مجال هام آخر للاختيار ينفتح أمامنا بمضى السنين . لمن نريد أن نحيا ؟ وما هو النجم الهادى لنا ؟ الطموح ؟ القوة ؟ المال ؟ الحياة المريحة ؟ ففى بعض الأحيان تتحول هذه الأشياء إلى رغبات مشتعلة ، وأحياناً ننزلق مندفعين نحوها دون أن نعى ذلك . ولكن الحياة قصيرة وعلينا أن نتخذ قراراً بشأن هذه القضية الهامة .

أريد أن أنهى هذا الكتاب بنداء . نداء بأن نأخذ مدى تضحية الرب لأجلنا مأخذ الجد ، ونقدم له كل حياتنا فى مقابل ذلك . نداء بأن نسمح له أن يوجهنا نحو طرق يعرف هو أنها الأفضل لنا ولملكوته . إنه قد أعطانا مواهب خاصة وإمكانيات ، ثم سمح لنا بأن نختار استخدامها بطريقة ما بحيث نقدم مبادئ الحب والخدمة للآخرين ، كما يليق بمواطنى ملكوت السموات . وذلك لا صلة له بالوظائف الفعلية والأعمال التى نشغل أنفسنا بها ، ولكن له علاقة قوية بموقفنا

والطريقة التى نسلك بها فى الحياة اليومية .

هناك فقرة رائعة عن نظام حياة وتأثير المسيحيين الأوائل فى الأصحاحين الخامس والسادس من كتاب قديم هو « الرسالة إلى ديوجنيتس » التى كتبت فى القرن الثانى للميلاد عندما بدأ الإنجيل يغزو العالم الخارجي بالفعل :

« إن الفارق بين المسيحيين والآخرين من الناس لا يوجد فى بلد أو لغة أو عادات .. فهم يتبعون التقاليد المحلية في اللباس والطعام وبقية شئون الحياة ، ومع ذلك فهم يمارسون العادات المتناقضة والخاصة بطبيعة انتمائهم الخاص بهم . إنهم يعيشون في بلادهم الخاصة ولكن كما لو كانوا مواطنين غرباء ، فهم يشتركون فى كل شئ مع المواطنين ومع ذلك يتحملون كل شئ كما لو كانوا من طبقة أدنى من بقية المواطنين . وكل بلد أجنبى يعد وطناً لهم وكل وطن يعيشون فيه يعد بلداً أجنبياً . إنهم يتزوجون كالآخرين وينجبون ولكنهم لا يجهضون صغارهم . إنهم يشتركون فى مائدة واحدة ولكنهم لا يشتركون فى فراش واحد . إنهم يعيشون فى العالم ولكنهم لا يعيشون بطريقة دنيوية . إنهم يستمتعون بالحياة بالكامل على الأرض ، ولكنهم مواطنو السماء .يطيعون القوانين المقررة ، ولكنهم يتفوقون على هذه القوانين فى نظام حياتهم . يحبون الجميع - وتتم السخرية منهم على نطاق واسع . إنهم غير معروفين - وهم موضع انتقاد الذين حولهم . يحكم عليهم بالموت - ويكسبون الحياة . إنهم فقراء ولكنهم يغنون الكثيرين . ينقصهم كل شئ ومع ذلك فلديهم كل شئ بوفرة . يتعرضون للهوان ويشعرون بالمجد فى هوانهم .. يعتدى عليهم ويطلبون البركة لمن اعتدى عليهم فى المقابل . عندما يفعلون الصلاح يُضربون كفاعلى شر ، وعندما يُضربون يفرحون كأناس حصلوا على حياة جديدة .. وبالاختصار فالمسيحيون فى العالم بمثابة الروح للجسد . الروح يعيش في الجسد ولكنه غير محدود بقيود الجسد ، والمسيحيون يعيشون فى العالم ولكنهم غير مقيدين بقيود العالم . لقد دعاهم الله بهذه الدعوة العظيمة ، ويرتكبون اثماً كبيراً لو أنهم رفضوا هذه الدعوة » .

إن هذا الوصف قد يكون مثالياً إلى حد ما . قد يكون وصفاً يبلغ من العمر ألفاً وثمانمائة سنة . ولكن أليست رؤية مدهشة لما يمكن أن نكون عليه نحن المسيحيين ؟ ليس فقط بالمهام التى

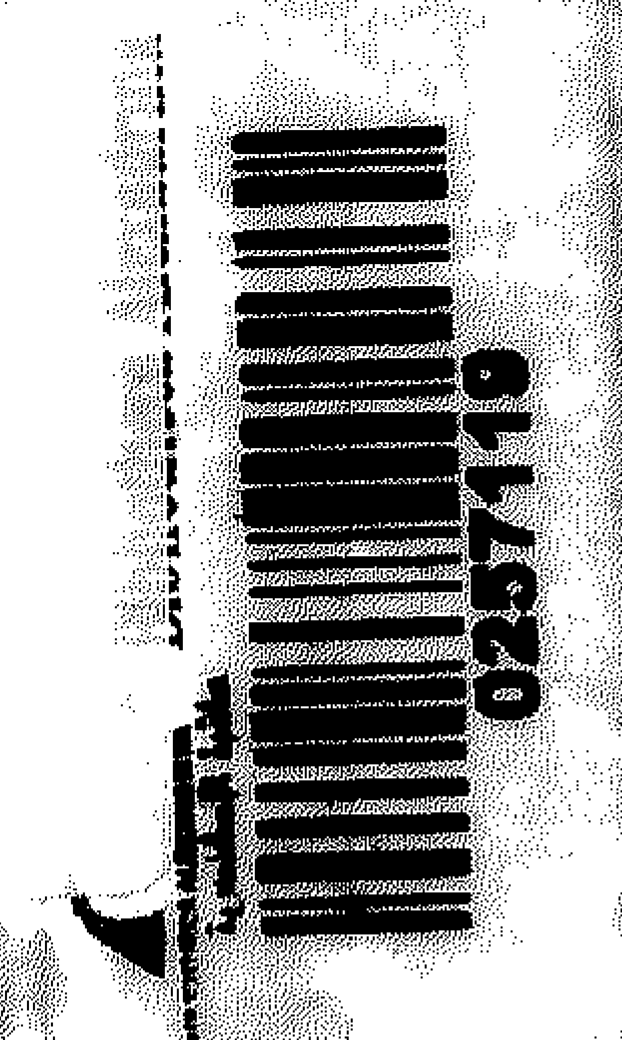
نقوم بها والطريقة التى نؤديها بها ، ولكن بنوعية أشخاصنا . إن هؤلاء المسيحيين الأوائل ما كان فى إمكانهم أن يعطوا للمجتمع هذه النكهة لو أنهم لم يقوموا بأصعب الاختيارات وأكثرها تكلفة ، أن يضعوا المسيح فى المقام الأول فى كل ميدان من ميادين حياتهم . إنهم يتفقون بلا شك مع منطق س . ت ستود (C.T. Studd) ، وهو رياضى دولى من القرن التاسع عشر قد ترك كل شئ وذهب للعمل كمرسل إلى ثلاث قارات ، وحقق نتائج لا تحصى فى عمل الخير . وقال : « إذا كان يسوع المسيح هو الله ومات لأجلي ، فلا تضحية يصعب عليَّ أن أقدمها مهما عظمت » .إننا نستطيع أن نفعل الكثير لو أن لدينا مسيحيين أكثر من ذلك الطراز اليوم ، لو أن لدينا مسيحيين على استعداد لمواجهة الاختيارات الصعبة . إننا لا نستطيع أن نقهرهم ، ولذا علينا بالانضمام إليهم .

اختيارات

نحن نواجه الاختيارات كل يوم. ماذا نلبس ؟ وماذا نأكل ؟ أى أفلام نشاهدها ؟ . ولكن هناك اختيارات تضيع وسط ضغوط الحياة العاجلة ، اختيارات تنطوى على تشكيل حياتنا وحياة من حولنا .

يلتقط مايكل جرين معلومات موثقة من تجربتنا بالسير على غير هدى فى وسط عالم هالك - شوقنا للحرية ، توترنا والضغوط من حولنا ، جوعنا للحب وللعلاقات الدائمة . وهو يعتقد أن هذه الأشياء تشير لأصعب الاختيارات - أن نتبع الشخص الذى يقول إنه يعطى معنى لكل شئ .

1



دار الثقافة

١٠١٠٠٢٧٥